

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة زيان عاشور بالجلفة



قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات والفنون

العنوان :

الخصائص الفنية لشعر النقائض في العصر الأموي

الفرزدق وجريرونموذجا

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة العربية وآدابها
تخصص : الأدب القديم و نقده

إشراف:

- أ.د/ فطيمة سعود

إعداد:

- فاطمة الزهراء برمان

- صالح بن ميلود

السنة الدراسية: ٢٠١٤/٢٠١٥م



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة زيان عاشور *الجلفة*



قسم اللغة العربية و آدابها

كلية الآداب واللغات والفنون

الخصائص الفنية لشعر النقائض في العصر الأموي المفردق وجريد نموذجا

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة العربية وآدابها

تخصص : الأدب القديم و نقده

أعضاء لجنة المناقشة :

- د/يوسف بن هورة أستاذ بجامعة زيان عاشور.....رئيسا
- د/ فطيمة سعود أستاذة بجامعة زيان عاشور.....مشرفا و مقررا
- د/ابراهيمى أحمد أستاذ بجامعة زيان عاشور.....عضوا ممتحنا

تاريخ المناقشة: ٢٠١٥/٠٦/٠٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

((قل إعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون))

صدق الله العظيم

إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك ولا يطيب النهار إلا بطاعتك .. ولا تطيب اللحظات إلا بذكرك .. ولا تطيب الآخرة إلا بعفوك .. ولا تطيب الجنة إلا برويتك الله جل جلاله

إلى من بلغ الرسالة وأدى الأمانة .. ونصح الأمة .. إلى نبي الرحمة ونور العالمين..

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

إلى من كلفه الله بالهبة والوقار .. إلى من علمني العطاء دون انتظار .. إلى من أحمل اسمه بكل افتخار .. أرجو من الله أن يمدّ في عمرك لترى ثماراً قد حان قطفها بعد طول انتظار وستبقى كلماتك نجوم أهدي بها اليوم وفي الغد وإلى الأبد..

والدي العزيز

إلى ملاكي في الحياة .. إلى معنى الحب وإلى معنى الحنان والتفاني .. إلى بسمة الحياة وسرّ الوجود

إلى من كان دعاؤها سرّ نجاحي وحنانها بلسم جراحي ..

أمي الحبيبة

إلى من يحملون في عيونهم ذكريات طفولتي وشبابي...

إلى إخوتي وأخواتي

إلى من ضاقت السطور من ذكرهم فوسعهم الفؤاد...

إلى كل الأهل والأقارب

إلى كل موظفي وطلبة كلية الآداب واللغات و الفنون بجامعة زيان عاشور.

نهدي هذا العمل

شكر و عرفان :

ومن العرفان بالجميل نقدم أجزل الشكر لمن أرشد ، ووجه ، وأعطى عطاء العالم برحابة صدر، وغزير علم لمشرفتنا الأستاذة الدكتورة/ فطيمة سعّود على ماقدّمته من توجيهات سديدة، واستدراكات دقيقة، وتوجيه مقدر، ومتابعة حريصة سائلين الله تعالى أن يجزلها المثوبة والأجر. . دون أن ننسى تقديم الشكر و الامتنان لأعضاء لجنة المناقشة.

ونختم ما تقدّم بكلمة شكر وفائق إحترام لكل من أسهم في خروج هذا العمل وتذليل الصعوبات التي اعترضته حتى رأى النور – والحمد لله – نخص بالذكر الأستاذين الفاضلين/ الأستاذ البشير برمان والأستاذ الحوّاس سعبيدي.

مقدمة

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين حمدا لشكره أداء ، ولحقه قضاء ولحبه رجاء ولفضله نماء ، ولثوابه عطاء والصلاة والسلام على نبينا محمد (ص) بن عبد الله وعلى اله وصحبه أجمعين،ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين، وبعد:

ارتبط الشعر العربي منذ اكتمال نشأته في العصر الجاهلي بالتعبير عن وجوه من نشاط القبائل العربية في حياتهم المفردة سلما وحربا ، تحالفا وصراعا في سبيل القيم المادية والاجتماعية التي كانت محورا للحياة آنذاك.

على أنّ هذه الوجوه من الحياة ، لم تبلغ حد السياسة بمعناها المعروف لذا ظلّ الفرد وثيق الارتباط بذلك الكيان الاجتماعي القبلي المستقل برغم ما قد يكون له من انتماء الى كيان أكبر، ولم يشعر الشاعر الجاهلي بحدود واضحة تفصل حياته وتجاربه الخاصة به وقيبلته، لذا قامت القصيدة العربية الجاهلية –غالبا- على المزج بين ما يبدو أنه عواطف ذاتية وبعض أمور القبيلة في الحلّ والترحال والحرب والسلم والقحط و الرخاء.

فلم يكن النسب والوقوف على الاطلاع والرحلة إلا تعبيراً من خلال التجربة الفردية عن القضايا الوجدانية والحيوية للجماعة ، فالنسب و الوقوف على الاطلاع ووصف الرحيل والظعائن صور متكاملة لشعور عام بالفقد لم يكن خاصاً بالشاعر وحده بل كان شيئاً من صميم حياة الجماعة.

وبظهور الاسلام بدأ المفهوم السياسي يشيع شيئاً فشيئاً في الشعر العربي حتى بلغ أوجّه في عصر بني أمية ، لأن أبرز المؤثرات في الحياة الأدبية عصرئذ كانت المؤثرات السياسية حيث كانت الأحزاب المصطرعة على الحكم تستعين بشعرائها لتأييد دعوتهم ومبادئها ومنافحة خصومها، وقد كان الشعر أحدّ الأسلحة في مناهضة الأعداء والدّود عن مبادئ الجماعة السياسية ، ومن هنا كان بنو أمية حراساً على اصطناع الشعراء المجيدين وغداق الأموال عليهم.

وكان شعراء الحزب الأموي أكثر شعراء ذلك العصر احتفالا بتنقيح شعرهم وتهذيبه والعناية بالبناء الفني لقصائدهم ليأتي شعرهم في الصورة المكتملة فنياً. ومن نتائج انغماس الشعراء في تلك الخصومات والعصبيات الحزبية التي كانت تغذيها الدولة حينذاك، أن ذاع فنّ شعري طريف هو فن (النقائض).

وقد عرف الجاهليون طرفاً من المناقضات ولكن لم يتح لها أن تذاع وتكثر في ذلك العصر، فلما كان العصر الأموي أقبل الشعراء الفحول : جرير والفرزدق والاخلطل، اذ استعانوا بألوان الثقافة التي انتشرت عصرئذ ؛ العقلية والدينية والادبية لقسباغ ثوب جديد على هذا الهجاء، فظهرت فيه أساليب جديدة وافتنّ الشعراء في ابتكار المعاني والصور الهجائية.

ولمّا كان للنقائض من وفرة الحظّ والارتقاء والشيوع في ذلك العصر فقد يسر الله أن يكون موضوع بحثنا (الخصائص الفنية لشعر النقائض مع دراسة تحليلية لنقيضتين بين الفرزدق وجريز).

لنطرح الاشكال الرئيسي لهذه الدراسة: ماهو فنّ النقائض؟ وماهي أهمّ خصائصه الفنيّة العصر الأموي؟

وقد دفعنا إلى اختيار الموضوع : الحاجة الملحة للتعرف على مفهوم النقائض وأبرز خصائصه وأشهر شعرائه، وما يمثّله الموضوع من أهمية بالغة في الكشف عن قيمة النقائض الأموية فنياً، كون فن النقائض فناً جديداً مستحدثاً في عصره، ولم يكن شائعاً من قبل وهذه الجِدّة مغرية جديرة بأن نقف عليها بالبحث والتنقيب ، إضافة الى ما يحمله فن النقائض من عنصر المتعة والتشويق إذ هو بالمقام الأول شعر يحمل روح التنافس والصراع ، وبالتالي يتوق المتلقّي لهذا الشعر لمعرفة الفائز في هذه المنافسة ومعرفة أسباب تفوّقه على خصمه، ومعرفة المزايا الفنية التي تحظى بها قصائد فن النقائض خاصة مايتعلق بالجانب الموسيقي الايقاعي ومايحدثه من متعة تنمّي ذوق المستمع خاصة وأنّ من شروط هذا الفن الرد على الخصم بنفس وزنه وقافيته ورويّه .

بناء على ذلك قسّم بحثنا إلى ثلاثة فصول بعد مقدمة ومدخل: تحدثنا في المدخل عن واقع الشعر في العصر الأموي ومدى اهتمام الخلفاء بالشعر والشعراء .

أمّا الفصل الأول المعنون بتعريف فني الهجاء والنقائض فقد قسّم الى مبحثين تناولنا في المبحث الأول تعريف الهجاء لغة واصطلاحاً وأنواع الهجاء مع ذكر شيوع غرض الهجاء في العصر الجاهلي وأسبابه وأخذنا الحطيئة أنموذجاً. وفي المبحث الثاني المعنون بشعر النقائض فقد عرّفنا النقائض لغة واصطلاحاً، وأسباب وظروف استحداث شعر النقائض وقيمة هذا الفن مع ذكر أشهر شعرائه في العصر الأموي.

والفصل الثاني عنون بمشاهير شعر النقائض في العصر الأموي وقسّم الى مبحثين، تناولنا في المبحث الأول الفرزدق؛ حياته ونشأته ونماذج من شعره وفلسفته في الحياة ، وذكرنا نفس العناصر في المبحث الثاني الخاصّ بجريز، وردف المبحثان بذكر أسباب نشوب الحرب الكلامية بين الشاعرين وذيوع فن النقائض بفضل هذه الحرب.

أمّا الفصل الثالث الذي عنون بالخصائص الفنية لشعر النقائض فقد أثريناه بتحليل قصيدتين نقيضتين للفرزدق وجريز تمّ من خلاله تحليل الصور الخيالية واستوضح فنيات الهجاء وتحليل الأبنية الايقاعية ذات العلاقة بمفهوم النقائض لنخلص في نهاية التحليل الفني إلى عقد مقارنة بين الشاعرين وختم بحثنا بعرض أهمّ النتائج المتوصّل إليها .

وقد اتبعتنا المنهج التحليلي النقدي، كما تمّ الاستعانة بالمنهج التاريخي المناسب لتتبع نشأة وتطور هذا الفن وأعلامه . ومن العراقيين التي اعترضت سبيلنا أثناء إنجاز هذا البحث هو مشكل انحصار هذا الفنّ الشعري في العصر الأموي لا غير لذا كان علينا استجماع ما جادته به قرائح الشعراء في عصر واحد دون غيره .

وقد رافقتنا في -رحلة بحثنا- مجموعة مصادر ومراجع هامة : ككتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفاهي الذي يعتبر من أهم المصادر التراثية وكذا ديواني الفرزدق وجريير، إلى جانب العديد من الكتب التي لها علاقة مباشرة بالموضوع.

مذخرفل

مدخل:

لقد كان للشعر العربي تأثير كبير في النفوس ومنزلة في العصر الأموي ، فقد عمل بنو أمية على انهاض الشعر ، وتشجيعه والاستعانة به في خدمة السياسة ومصالح الحكم ، وأسهموا في إيقاد نار العصبية بين الأحزاب ، وبين الشعراء ، فقد كانت الظروف المحيطة موالية لذلك، حيث أصبح الخلفاء والأمراء في هذا العصر أشبه بالملوك والسلطين، وخلعوا على أنفسهم عظمة الملوك وهيبتهم ، وصار لهم أبواب يتهافت عليها طلاب الدنيا وأصحاب الحاجات؛ كان الشعراء في مقدمة هؤلاء الذين كانوا يطلبون أبواب الخلفاء و الأمراء ويتكالبون عليها فينشدونهم قصائد المديح والاطراء طمعا في نيل رضاهم ، والفوز بعطاياهم السخية.¹

لهذا فتح الخلفاء والأمراء أبوابهم وصدورهم للشعراء يستمعون لإنشادهم ويطلبون المزيد من قصائد المدح ويشعلون نار التنافس بينهم مستعرضين معهم ما شاؤوا من فنون الشعر، ثم يفاضلون بينهم ويأمرون لمن أجاد منهم بالجوائز والعطايا التي تقرّ بها عيونهم وتلهب حماسهم للمزيد من القول وإجادته. وكثيرا ماكانوا يجمعون الشعر ويباحثون الشعراء وينتقدونهم ، كما يقومون بجمع طائفة في مجلس ويفترحون عليهم أن يصفو شيئا ويجيزون المواجيد كما فعل عبد الملك بن مروان إذ جمع إليه الفرزدق وجرير والأخطل وقال لهم أنشدونا من فخركم شيئا حسنا، ففعلوا في حديث طويل.²

وكتب الأدب مليئة بمثل هذه النماذج التي تدلّ -بوضوح- على أنّ الخلفاء والأمراء كانوا يتعهّدون الشعر والشعراء بالعناية والإهتمام وأنّ مجالسهم قد ازدانت بالأدب والأدباء، كما تدل على تشجيعهم للشعر، وبث روح المنافسة بينهم حتى خلفت لنا مجالسهم تراثا هائلا من الشعر، كما أنّ ظهور الفرق والأحزاب في هذا العصر جعلت الشعر من أبرز الأسلحة في هذا المعترك السياسي الكبير، فكان لكل فرقة أو طائفة شعراؤها الذين ينتصرون لها ويدافعون عنها ويكيلون لأعدائها من الطوائف الأخرى الهجاء المرّ والمثالب الفاحشة.

وهذا مظهر جديد لتلك الحياة المدنية الأولية التي هيأها الاسلام للعرب لأول مرة، فجعل من الأشتات وحدة ظاهرها الجماعة والألفة وباطنها العداوة والفرقة ، فهو مهاجاة بين الافراد ومساجلة بين الأحزاب، ومفاخرة بين القبائل ومدح للزعماء والخلفاء، وهذه الموضوعات بطبيعتها تقتضي اللفظ الجزل، وتستدعي الاسلوب الرصين، والصور الرائعة مما جعل الشعراء يتفنّنون في القول، باحثين عن أسباب جودته ورقّيه؛ ليكون ذلك أدعى لإفحام خصومهم.³

¹ فوزي السيد عبد ربّه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٥ م ص ٧١

² المرجع نفسه ص ٧٢.

³ أحمد حسن الزيات، تاريخ الادب العربي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ص ١١٠.

قيمة ودور الشعر الهجائي في العصر الأموي:

عُدَّ الشعر – في هذا العصر- سلاح من أقوى الأسلحة التي يواجه بها كل فرق خصمه، فهم يدركون أنّ فن القول والتأثير على القلوب من أهم ما يعلنون به عن مبادئهم وأهدافهم التي تعددت وكثرت، فقد اعتمد الشعراء في الهجاء على المثالب من جبن وبخل وقلة وذلة، وفي المدح والفخر على ذكر الأيام الدامية الماضية وما فيها من غنيمة السلب والغلب. فالهجاء في هذا العصر بأنواعه الخاصة والعامة يكاد الغرض الطّاعي لتكالب المعادية لبعضها البعض، وظهور المذاهب المتباينة فيه، وغلبة البداوة والأنفة، فشعراؤه يبدئون به ويتقنون فيه ويعيشون عليه.¹

كما عدّوا الهجاء لهجة لإهانة العدو، على أنّ التّهاجي السياسي جرّ إلى التّهاجي بين الشعراء بقطع النظر عن الأحزاب السياسية والغرض من ذلك المقارعة لبيان المقدرة الشعرية. ومن ألوان الهجاء الشخصي ما عرف بالنقائض الذي تبادل فيه شعراء ذلك العصر السباب على نحو ما يعرف من قبل محور هذا الفنّ ومداره شعراء العصر الثلاثة المقدّمون: جرير والفرزدق والأخطل، فهؤلاء الثلاثة كان لهم الشهرة بحيث إذا مدحوا قوما رفعوهم وإذا ذمّوا قوما وضعوهم.²

وكان إقبال الناس على شعر الفرزدق وجرير والأخطل وإهتمامهم بهجائهم داعية لإغراء معظم شعراء عصره أن ينهجوا نهجهم، فتميم ابن مقبل يهاجي النجاشي والنجاشي يهاجي عبدالرحمن بن حسان بن ثابت... الخ، اشتعل هذا العهد بالهجاء والمناقضات حتى تجاوزه الى الأقطار الأخرى فكان جرير والفرزدق يلهبان هذا الفن وينشطانه أينما ذهباً، ولم تكن العداوة وحدها هي الدافع الى الهجاء والمناقضة في كل الأحيان، فقد كان جزء كبير من هذه المناقضات يعتمد على المهارة الفنية، ويهدف إلى السبق والتفوق من الناحية الشعرية الخالصة، فقد كان الفرزدق وجرير على ما بينهما من خصومات مريرة، يتبادلان أشنع الهجاء وأفحش السباب، وكان الجانب الأكبر من نقائضهما منافسة أدبية، لذلك حرص الشاعر حين يجيب على نقبضة خصمه أن تكون إجابته من نفس البحر والروي، حتى تظهر مزية السبق لأحدهما على الآخر، والظاهر أنّ الإجابة من نفس والبحر والروي كانت قاعدة مقررة في الموازنة بين شعر الشعراء، فقد النقّاد من عصر امرئ القيس إذا أرادوا أن يوازنوا بين شاعرين وازنوا بينهما في شعر متّحد في الغرض وفي الوزن والقافية ونفروا من التّشاز الموسيقي الناجم عن الإضطراب الذي وقع فيه بعض الشعراء.³

¹ أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي ص ١١١.

² ابن عبد ربّه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين ص ٧٩.

³ مصطفى عبد الرحمن ابراهيم، في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة، القاهرة/١٩٩٨.

شروع فن النقائض في العصر الأموي:

لقد كانت النقائض أشبه بمدرسة شعرية نقدية معاً، فكانت نظرة الشعراء إليها على أنها ميدان أصالة شعرية لا يثبت فيه إلا الأصلاء في هذا الفنّ وبهذا أسهمت النقائض في فهم الأساليب الشعرية التي إستعملها كل شاعر، وأشاعت جواً من الوعي الأدبي والنقدي في المجتمع الأموي وقد حققت النقائض ثورة نقدية قامت على مظاهر مختلفة بعضها لغوي، والآخر نحوي، والثالث أدبي وأعدت للشعر فخامته ورقية الفني، وكست أغراضه وفنونه ديباجة من القوة والازدهار¹.

¹ ابن عبد ربّه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين ص ٨٠.

الفصل الاول :- في تعريف فني الهجاء والنقائض

المبحث ٠١ :- في تعريف الهجاء

- لغة و اصطلاحا
- أنواع الهجاء
- أسباب شيوع الهجاء في العصر الجاهلي وأبرز شعراء هذا الفن

المبحث ٠٢ :- في تعريف النقائض في العصر الأموي

- تعريف النقائض لغة واصطلاحا
- أسباب وظروف استحداث شعر النقائض
- قيمة النقائض الأموية
- أبرز فطاحلة هذا الفن في العصر الأموي .

في تعريف الهجاء:

(أ) الهجاء لغة: (هجا) الكتاب هجوا وهجاءا : قرأه وتعلّمه ،وفلانا :هجوا وهجاءا ذمّه وعدّد معايبه ويقال : المرأة تهجو زوجها وصحبته: أي تذمّه وتشكو منه و(هجو) اليوم :هجاوة : اشتدّ حرّه (أهجي) القول أو الشعر: وجده هجاء .(هاجاه) : مهاجاة وهجاء: هجا: كل واحد منهما صاحبه .(هجي) الصبي الكتاب علّمه إيّاه .(تهجى) الحروف الابدجية : عدّها بأسمائها ،أو نطق بالأصوات التي تمثّلها و(الأهجوّة) ما يتهاجى به كالقصيدة أو القطع الشعرية ،جمع أهاجي ”1“

و(الهجاء): السبّ وتعدد المعايب ويكون غالبا بالشعر ، ويقال هذا على هجاء كذا : على شكله وفلان على هجاء فلان: على مقداره والطول والشكل ،و(الهجاء) :من يكثر سبّ غيره وتعدد معايبه ،يقال :رجل هجّاء . ”2“

وتدور مادة (هجو) في المعاجم العربية حول معان عدة تحمل فيما يلي :

الهجاة :الضفدع

فهجو يومنا : إشتد حرّه

هجيت عين البعير : غارت

الهوج : الحمق والتسرع

ومما هو قريب من مادة : الهياج : بمعنى الغضب والقتال والحرب ، فتسمى : الحرب بالهيجاء .

الرياح الهوجاء : التي تقتلع البيوت .

وهذه المعاني كلّها تتصل اتّصالا وثيقا بالمعنى الأدبي لكلمة (هجاء) فقد يكون الهجاء ، بمعناه الأدبي مأخوذا من الضفدع ، فهو قبيح الشكل ،بشع الصوت ،وقد يكون مأخوذا من اشتداد الحرّ،ففيه معنى التنكيل والتعذيب وقد يكون مأخوذا من الأصل الهجائي ،فهو يكشف عن سيئات المهجو ويقف عند نواحي الضعف ويكبرها ويظهرها في أوسع صورة . ”3“

”1“ مجمّع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ، مصر، ط ٤ \٢٠٠٤م – ص١٠٠٥

”2“ مجمّع اللغة العربية ، المعجم الوجيز ، وزارة التربية والتعليم ، مصر ١٩٩٤ م ص ٦٤٥

”3“ شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر ، مكتبة الدراسات الأدبية دار المعارف القاهرة ، ط ١١ ، ١٩٨٧ ص ٢١٣

ب) تعريف الهجاء اصطلاحاً :

الهجاء في اللغة الشتم بالشعر، وفي لسان العرب ((هجاه)) لهجوه هجوا وهجاء وتهجاء ممدود :شتمى بالشعر، وهو خلاف المدح . قال الليث : هو الوقعة في الاشعار ...وهم يتهاجون : يهجو بعضهم بعضاً، وبينهم أهجوة وأهجية ومهاجاة يتهاجون بها. "1"

والهجاء في الإصطلاح غرض من أغراض الشعر يتناول فيه الشاعر بالذم والتشهير خصمه المعنوية والجسمية . وهو نقيض المدح ، لأنّ المدح يذكر الفضائل والهجاء يذكر الرذائل . "2"

خصائص الهجاء:

لمّا كان الهجاء بعض الشعر الجاهلي، فإنّ خصائصه الفكرية والفنية لاتخالف خصائص هذا الشعر، بل تنتسب منها:

١) وأولى هذه الخصائص ضالة الهجاء، وقصر مقطعاته، وانضوائه في الأغراض الأخرى وربما كان قصر مقطعاته سبباً من أسباب رواجه وسيرورته وعلوقه بالحافطة.

٢) وربّما كان انضوائه تحت الأغراض الأخرى ناجماً عن الاعتقاد بأنه وسيلة للدّفاع عن النفس والقبيلة، لا غاية يرمي إليها الشعراء، ولذلك لم يفرده الشعراء بقصائد خاصة.

٣) مجانية الإقذاع : وتتبع هذه الخاصية من صفاء النفس العربية الأعرابية وصدقها وصراحتها، والتزامها القيم ، وبغضها النّفاق .

٤) الواقعية والصدق : لم يكن الجاهليون يسرفون في الهجو، ولا يفترون على الخصوم ما ليس فيهم، بل يعيبون الخصم بما فيه، ويذكرون عيوبه بلغة واضحة بسيطة .

٥) الهجو بالمخازي لا العاهات :لمّا كان القصد من الهجاء كفّ الأذى، فالعاهات الجسدية لاموضع لها في هذا الهجاء ولقد كان الشاعر الجاهلي يهجو ليصلح فاسداً ويقوم منحرفاً ، ويدفع عن نفسه البغي، وعن قبيلته الهوان، لذلك حرص على المخازي الخُلقية من غدر ولؤم وشح وجبن. "3"

ج) المفهوم الأدبي لغرض الهجاء:

الهجاء أدب غنائي يصور عاطفة الغضب والإحتقار والاستهزاء، وسواء في ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الاخلاق والمذاهب ، وتعريف الهجاء بأنّه أدب غنائي

"1" ينظر، أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور، لسان العرب، المجلد السابع، ص

"2" مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص 1005.

"3" مجمع اللغة العربية، معجم الوجيز، ص 645

وليس شعر غنائي دليل على أنه شامل للشعر والنثر ،فهو غناء وتصوير لعواطف شخصية وليس

الشعر هو السبيل الوحيد لمثل ذلك. "1"

فالجاحظ يسمي بعض ر سائله هجاء فيقول في مقدمة كتاب الحيوان :((وعبنتي بكتاب الأوفاق والرياضات ...وبكل ما كتبت إلى إخواني وخطائي من مزح وجدّ ومن إفصاح وتعريض ،ومن تغافل وتوفيق ، ومن هجاء لا يزال ميسمه باقيا ، ومديح لا يزال ناميا ... الخ "2"

وقد جعل صاحب العقد الفريد هجاء في القرآن حين قال: يقول الله تعالى في هجو

المشركين "3" ((والشعراء يتبعهم الغاوون)) "3" الشعراء آية ٢٢٣

وأبو هلال العسكري يروي في باب الهجاء شعرا أخلاقيا لا يدخل في الهجاء بمعناه الضيق عند الكثير من الشعراء ، ويذكر في هذا الباب نثرا مسجوعا في أغلب الأحيان ولكنه يسميه ذمّا .

فمن أمثله الهجاء الأخلاقي الذي ينصبُّ على الجماعة ولا ينصبُّ على الفرد ما يروي أبو هلال لنفسه :

كم حاجة أنزلتها بكريم قوم أو لئيم

فإذا الكريم من اللئيم أو اللئيم من الكريم

فشر يفهم ووضيعهم سيان في شرف ولوم

قد قل خير غنيهم فغنيهم مثل العديم

وإذا اختبر حميدهم ألفيته مثل الذميم "4"

ومن أمثلة الهجاء نثرا قول بعضهم لرجل استضاف بخيلا (نزلت بواد غير مطور ، ورجل غير مسرور ، فأقم بندم ، وارحل بعدم) وقول أعرابي دخل بغداد : (فإذا ثياب أحرار على أجساد عبيد. إقبال حظ الكرم. شحر فروعه عند أصوله. شغلهم عن المعروف رغبتهم في المنكر). "5"

"1" محمد محمد حسين ، الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، مكتبة الاداب بالجاميز ، مصر ، ١٩٤٧ ص ١٢ .

"2" أبو عثمان ابن بحر الجاحظ ، الحيوان ، شرح عبد السلام محمد هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ط١٩٦٥/٢٢ ص ٧ .

"3" أحمد بن محمد بن عبد ربّه الاندلسي ، العقد الفريد ، جزء ٧ ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٢٩٤ .

"4" أبو هلال العسكري ، ديوان المعاني ج ١ ، شرح أحمد حسين بسج ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط ١ ١٩٩٤ م ص ١٨٥ .

"5" محمد محمد حسين الهجاء والهجاءون في الجاهلية ص ١٣ .

لم يكن الهجاء عند العرب في اعتبار السُّباب والإفحاش ، ولكنّه سلب الخلق أو سلب النفس ، أو فصل المرء من مجموع الخلق الحي الذي يؤلف قومية الجماعة وتركه عضواً ميتاً يتواصفون ازدراءه ، وكثيراً ما يلاحظ أنّ الشاعر يتخطّى هجاء خصمه لينال أيضاً من قبيلة هذا الخصم أو حزبه أو عقيدته ، ويقارن بين المهجّو وقومه وبين قومه هو .¹

وقد كان الهجاء نزاعاً لتلك الصفات الحميدة عندهم عن المهجّو ووصمه بأضدادها بضعة الأصل وقلة عدد القبيل وبالجبين وبالبلخ وأجود الهجاء في رأي كثير من الشعراء ما سلب المهجّو صفاته النفسية لا الجسدية²

صفات وميول الهجّائين النفسية:

الهجّاء ناقد بطبعه عيّاب بطبعه تسترعيه حماقات الناس وأخطائهم بأكثر ما تسترعيه فضائلهم، فهو لا يحسُّ مثله الأعلى بطريق مباشر، ولا يفطن إليه إلاّ عن طريق ما يعارضه ويثيره، فكأنه لا يهتدي لنفسه إلاّ بالقدر الذي يدفعه إليه حقه وغضبه ولا يكتشف نوقه ومواهبه إلاّ عن طريق السخط فمحاسن الناس لا تثيره ولا تحرك نفسه. لذا يقول الشعر لأنه مغيب فالغضب يدفع للشعر، ولقد يكفي أن يفتح الإنسان عينه في بساطة ليعرف أنّ من الصعب أن لا يقول هجاء.³

الهجّاء ساخط على المجتمع تائر على مافيه ضيق به، وهذا الشعور مركز في نفسه مستقرّ في باطنه، فهو يحول بينه وبين إدراك الجانب المضيئ من الحياة، فهو كالثور الذي لا يحركه إلاّ منظر الدم. هو جلاّد لا يرى من عمله تعليق النياشين على صدور الأكفّاء، ولكنه يصب سوطه على ظهور المجرمين. ولو تتبّعنا تاريخ الهجّائين في الآداب المختلفة لرأيناهم قد قاسوا من الحياة ومن بغضها إليهم، وحقرها في نظرهم، وجعلهم يتطيرون بكل شيء فيها. فالهجاء نتيجة عقدة نفسية وربّما في كثير من الأحيان نتيجة لمركب نقص.⁴

فقد كان الحطيئة دميم الخلقة مغموز النّسب، وكان جرير متواضع النشأة والنسب وكان بشار مَشوّه الخلقة وكان أبوه مولا مهينا.⁵

¹ "سراج الدين محمد، الهجاء في الشعر العربي، دار الراتب الجامعية، لبنان ص 6.

² "عثمان موافي، في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنقد العربي القديم ج 1 دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية / 2000 م ص 69.

³ "محمد محمد حسين الهجاء والهجّاءون في الجاهلية ص 27.

⁴ "مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب ج 2 مراجعة: عبدالله المنشاوي مهدي البحقيري، مكتبة الايمان، القاهرة ط 1 ص 77.

⁵ "محمد بن مسلم ابن قتيبة الدّينوري، الشعر والشعراء، تحقيق عمر الطباع، دار الارقم لبنان ط 1/ 1997 م ص 29.

كلّ هذا يعلل لنا الميول الهجائية في الهجائين، ولكنه لا يعلل نبوغهم فالسخط وحده قد يخلق هجاء، ولكن هذا الهجاء لا ينبغ ويتفوق حتى تتوافر فيه صفات أخرى. وأول هذه الميزات دقة الملاحظة.

فالهجاء يفتن إلى أدقّ التوافه وأطف ما يحيط به، وهو ينظر إلى كل ما حوله بعين الناقد الذي يلتمس العيوب، فهو سيئ الظنّ بالناس في معظم الأحيان، وقد لا يحتاج الهجاء إلى أن يكون عميق التفكير أو ممتاز الخيال. ولكنّه لا يكون ناجحاً إلا إذا رزق العين الناقدة التي تحسن إختيار مواطن الضعف وتعرف أين تضرب فريستها. والهجاء لا يُرزق الذبوع والشهرة إلا إذا كان في أسلوبه لذع يعتمد على الذكاء والفتنة فهو لا يؤدي فكرته أداء مباشراً صريحاً، ولكنه يشير إليها في حذق. ويلمح إليها في لباقة ويسخر من فريسته مداعباً، فجرير حين يهجو تيما بالجبن لا يقول في الصراحة أنهم يفرّون من ميدان القتال ولكنه يقول:

تري الأبطال قد كلّموا وتيم صحيحوا الجلد من أثر الكلوم¹

والهجاء مع هذا ماهر في التماس وجوه الشبه بين موضوع هجائه وبين أقبح الصور وأبعثها على الضحك والاستهزاء معتمداً في ذلك على التأثير السريع والوضوح الخلاب. فأسلوبه يمتاز بالبساطة التي لأثر فيها للتكلف وقد يحمل فيه الإسفاف والهبوط إلى مستوى النكتة العامة والحديث الشائع المتداول بين العامة، أما الفكرة العميقة والفنّ الشعري السامي الذي يصدر عن الجهد الطويل والإمعان في التروّي والتفكير، فهو يذهب بشطر كبير من قوّته وتأثيره. فلم يفسد هجاء الفرزدق شيئاً كالتكلف ولم يضعف هجاء أبي تمام شيئاً كالعمق والإبعاد في الخيال، وجميع الشعراء يروّون قصر الهجاء أجود، وترك الفحش فيه أصوب إلا جريراً فإنه قال لبنيه: إذا مدحتهم فلا تطيلوا الممادحة، وإذا هجوتهم فخالفوا. وقال أيضاً إذا هجوت فأضحك.

ويروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: خير الهجاء ماتنشدته العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها، نحو قول جرير:

لو أنّ تغلب جمّعت أحسابها يوم التفاخر لم تزن مثقالاً

ومن أجلها قال خلف الأحمر: أشدّ الهجاء أعفّه وأصدقّه، وقال مرة أخرى: ماعفّ لفظه وصدّق معناه، ومن كلام صاحب الوساطة: فأما الهجو فأبلغه ماخرج مخرج التهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض وماقربت معانيه وسهل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس، فأما القذف والإفحاش فسباب محض، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن.²

¹ محمد محمد حسين الهجاء والهجاءون في الجاهلية ص ٣٠.

² أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ج ٢ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد دار الجيل للنشر والتوزيع لبنان ٤٥٦ هـ ص ١٧٧.

ومما يدل على صحة مقاله صاحب الوساطة وحسن مذهب إليه إعجاب الحذاق وفرسان الكلام
قول زهير في تشككه وتهزله وتجاهله فيما يعلم:

وما أدري وسوف أخال أدري

أقوم آل حصن أم نساء

فإن تكن النساء مُخبّات

فحق لكل مُحصنة هداء

ومن الاستحغار والاستخفاف قولُ زياد الأعم:

فقم صاغرا يا شيخُ جرم فإنما

يقال لشيخ الصدق: قم غير صاغر

فمن أنتم؟ أنا نسينا من أنتم

وريحكم من أيّ ريح الأعاصر

أنتم أولى جنتم مع النملِ والدبا

فطار وهذا شيخكم غير طائر¹

ويقال أنّ أهجى بيت قاله شاعر هو قول الأخطل في بني يربوع رهط جرير:

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كلبهمو

قالوا لأهمم: بولي على النارِ

لأنّه قد جمع فيها ضروبا من الهجاء: فنسبهم إلى البخل بوقود النار لئلاّ يهتدي به الأضياف ثم
البخل بإيقاد الحطب، ووصفهم بامتهان أهمم وابتذالها ويدلّ بذلك على العقوق والاستخفاف وعلى
أنّ لاخادم لهم، وأخبر في أضعاف ذلك ببخلهم بالماء. ²

أنواع الهجاء :

يمكن تصنيف الهجاء إلى الأنواع التالية:

أ/الهجاء الشخصي:

كان مثاره تلك المنازعات الفردية والخلافات التي لا بدّ من أن تنشأ من احتكاك الناس وتعارض
مصالحهم في بيئة تقوم على القتال والنزاع في سبيل الحياة، وقد اعتبره كثير من النقاد أخطّ أنواع
الهجاء لأنه تصوير حارّ لعاطفة الغضب التي تنحرف بطبعها عما ينبغي للفن من أناة، وكان لذلك
صورة خشنة للتجربة، لم يختزنها الحس الفني ليعيد عرضها بعد أن يستثيرها وهو مع ذلك قليل
الغناء عند طالبي اللذة الفنية فالمشاركة في الشعور بين القارئ والشاعر ضعيفة أو مفقودة ثم هو
بعد ذلك صورة مضطربة هائجة غير مهذّبة للغضب، قليل الحظّ من الخيال، فقير في الصور،
محدود المعاني فيه الاستعلاء على الخصم بكل شئٍ بالمال و بالأهل والحسب، وفيه السباب المقذع
في كثير من الأحيان الذي يتعرض لأغلط العورات دون احتشام ومع ذلك نعثر في بعض

¹“سراج الدين محمد، الهجاء في الشعر العربي ص ١٨

²“احمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي ص ١١٤

الأحيان على شعر من هذا الباب لا يخلو من بعض المتعة الفنية مثل قول ذي الاصبع العدوانى في هجاء ابن عمّ له:

ولي ابن عمّ على ماكان من خلقٍ مُختلفان فأقلبيهِ ويقالُ—يني
أزرى بنا أننا شالت نعامتنا فخالتي دونه بل خاتمه دوني
يا عمرو إن لا تدع شئمي ومنقستي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني
إنّي لعمرُك ما بابي من ذي غلقٍ عن الصديق ولا خير بغير ممنون
ولا لسانى على الأذى بمنطلقٍ بالفاحشات ولا فتك بمأمون¹

وربما أوعزت المعاييب الشاعر فاخترق الكذبة الغليظة ثم لم يزل يكررها في شعره حتى تروج عند الناس وتسمر بها نواديهم، وذلك شر ما يخافه الناس من الشعراء. وبعض الهجاء الشخصي يتصل بالقبائل وما بينها من خصومات فيكون الهجاء في ظاهره موجها لشخص وهو في حقيقته موجّه للقبيلة ممثلة في هذا الفرد الذي هو زعيمها أو شاعرها. وهنا يختلط الشتم والسباب بالتلميح إلى أسباب الخصومة بين القبيلتين فيجد الهجاء بين يديه مادة خصبة تعينه على المضي في قصيدته حتى تبلغ عشرات الأبيات.²

ب/الهجاء السياسي:

وهو الهجاء الذي يقوم على العصبية للوطن فيهاجم كل من يؤذيه أو يهدد كيانه، فالشاعر هنا يعبر عن جماعة هو أحدها، ولا يكاد يحس شخصيته إلا في حدود هذه المجموعة فهو يصور جماعة من الناس تربطهم أواصر النسب صحيحة أو مزعومة، فعاشوا في حدود هذا التصور، وعلى هذه الأنساب قامت أحلافهم وحروبهم منذ زمن بعيد وهنا ينصر الرجل منهم أخاه ويتعصب له ظالما أو مظلوما.³

فالشاعر هنا أشبه بالمورخ، لأنه يصور مجد قبيلته معددا أيامها ويؤرخ ضعف أعدائهم، معبرا هزائهم بما يوقع في نفوسهم الخزي والصغار، ولذلك كان لابد للشاعر المتصدي لهذا القصد أن يلتم بالأخبار والأنساب إماما حسنا، وهذا هو حسان يتصدى للدفاع عن الإسلام فيدله النبي(ص) على أبي بكر يتسعين به فيما يحتاج إليه.⁴

¹ محمد محمد حسين الهجاء والهجاءون في الجاهلية ص ٩٧.

² المرجع نفسه ص ٩٨.

³ المرجع نفسه ص ١١٤.

⁴ "٤" ابتسام مرهون الصقار، الأمالي في الادب الاسلامي، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان/ ٢٠٠٥م ص ٢٣٦.

ومن أجمل الشعر الذي صوّر هذه الظاهرة في الهجاء السياسي الذي يعتمد على التاريخ والأنساب مطوّلة الحارث ابن جِلْزَة التي أنشدّها بين يدي عمرو بن هند وفيها يقول:

أذنتنا بَيْنِيهَا أَسْمَاءُ رَبِّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ النَّوَاءُ
بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِبُرْقَةِ شَمَاءِ ءَ فَأَدْنَى دِيَارِهَا الْخَلْصَاءُ
لَا أَرَى مَنْ عَهْدْتُهُ فِيهَا فَأَبْكِي الْيَوْمَ دَلَّهَا وَمَا يُحِيرُ الْبُكَاءُ
غَيْرَ أَنِّي قَدْ أَسْتَعِينُ عَلَى الْهَمِّ إِذَا خَفَّ بِالْثَوِيِّ النَّجَاءُ
أَتَلَهَّى بِهَا الْهَوَاجِرَ إِذْ كُئِلُ ابْنِ هَمٍّ بَلِيَّةٍ عَمَّ الْبِيَاءُ
وَأَتَانَا مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْأَنْبَاءِ خَطْبُ نَعْنَى بِهِ وَنَسَاءُ
أَنَّ إِخْوَانَنَا الْأَرَاقِمَ يَغْلُونَ عَلَيْنَا فِي قَبِيلِهِمْ إِخْفَاءُ
زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ الْعَيْرَ مُوَالٍ لَنَا وَأَنَا الْوَلَاءُ
أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ
فَبَقِينَا عَلَى الشَّنَاءَةِ تَنْمِينَا حُصُونٌ وَعِزَّةٌ قَعَسَاءُ¹

يبدأ الحارث قصيدته بذكر صاحبه أسماء، فقد أذنته بعد عهد لها ببرقة شماء منتقلا بين الأماكن التي كانت تحلُّ بها، فإذا هاجته الذكرى بكى وإن كان يعلم أنّ البكاء لا يردُّ فائتة، ويستغرق في هذه المقدمة ١٤ بيتا ينتقل بعدها إلى غرض قصيدته وما بين قومه وبين الأرقام - وهم بعض بطون تغلب- من عداة وهو لا يهاجم الأرقام بادئ الأمر بل يتلطف في شبه عتاب، ثم يشتد ذلك العتاب فيصبح تقرّيعا، ثم تعبيراً، ثم مهاجمة عنيفة. ²

ج/الهجاء الديني:

وهذا قسم من أقسام الهجاء السياسي، صاحب الحركة الإصلاحية التي بدأت في الجزيرة بظهور النبي (ص) ودعوته إلى دين جديد فقد كان للإسلام إلى جانب صفته الدينية صفة سياسية تهدف إلى توحيد الجزيرة وخلق دولة كبيرة تخضع لسلطة مركزية واحدة. ³

¹ عبد الله الحسن ابن احمد الزّوزني، شرح المعلقات، تحقيق لجنة التحقيق في الدار العالمية، بيروت، ١٩٩٣ م ص ١٤٦.

² محمد محمد حسين، الهجاء والهجّاءون في الجاهلية ص ١٢٠.

³ المرجع نفسه ص ١٦٣.

وليس من شكّ في أنّ النبيّ (ص) كان من أنضج العقليات السياسية التي عرفها التاريخ، كان همّه الأول توحيد صفوف حزبه، وقد أدرك عليه الصلاة والسلام وما يتركه فنّ القول من أثر في نفوس الناس فعُني بالردّ على شعراء قريش، مُنادياً بذلك بعض الشعراء من المسلمين، فكان الهجاء والقتال متلازمين في نشر الدعوة كما يقول حسان:

لنا في كلّ يومٍ من معدٍ سُبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هَجَاءٌ
فَنَحْكُمُ بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ¹

كان النبي (ص) يختار الشعراء الذين يزودون عن الدعوة بنفسه، فلقد نادى عبدالله بن رواحة فقال له: (كيف تقول الشعر إذا قلت؟) قال: أنظر في ذلك ثم أقول فقال (ص): عليك بالمشركين فقال قصيدته:

فخَبَّرُونِي أَتْمَانَ الْعَبَاءِ مَتَى كُنْتُمْ بَطَارِيقَ أَوْ دَانَتْ لَكُمْ مُضَرُّ²

ولما انهزم المشركون يوم الأحزاب، قال (ص): (إنّ المشركين لن يغزوكم بعد اليوم، ولكنكم تغزونهم، وتسمعون منهم أذى، ويهجونكم فمن يحمي أعراض المسلمين؟) فقام عبد الله بن رواحة فقال: أنا . فقال (ص) (إنك لحسنُ الشعر) . ثم قام كعب فقال: أنا . فقال (ص): (وإنك لحسنُ الشعر).

ورُوي عن النبي (ص) أنه قال: (أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت حسان فشفي و اشتفى . ووقف رسول الله (ص) بباب حسان بن ثابت فخرج فأنشده فقال (ص) :ايه فأنشده . فقال :ايه فأنشده ثلاث مرات . فقال: رسول الله لهذا أشدُّ عليهم من وقع النبل³ .

وقال صاحب الاغاني : كان يهجو قريشا ثلاثة نفر من الأنصار يجيبونهم ، حسان بن ثابت وكعب بن مالك ،وعبد الله بن رواحة . وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع و الأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر . فكانوا في ذلك الزمان أشدّ شيء عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الاسلام . بقي أشدّ القول عليهم قول ابن رواحة .⁴

¹ احمد حسن الزيات ، تاريخ الادب العربي ص. ١٥٣

² وليد قصاب، ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره، دار العلوم للطباعة و النشر، الرياض ط١/ ١٩٨١ م ص٣٠ .

³ أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، تحقيق و اشرف لجنة من الأدباء ، المجلد ٢ ، دار الثقافة ببيروت ط٥/ ١٩٨١ م ص٣٩٣

⁴ المرجع نفسه ص ٣٩٤ .

أسباب شيوع الهجاء في العصر الجاهلي و أبرز فطاحلة هذا الفن :

الهجاء فنٌ قديم قَدِم عاطفة الغضب والميل الفطريّ إلى نقد المعاييب ، فهو من الفنون الأدبية الغنائية التي عرفها الأدب منذ الجاهلية ، وفي أخبارهم أنّ الشاعر إذا أراد الهجاء لبس حُلّة خاصة كحلل الكُهّان ، وحلّق رأسه وترك له ذؤابتين ودهن أحد شِقَيّ رأسه ، والمعروف أنّ حلق الرأس من سننهم في الحج وكان شاعر الهجاء يتّخذ نفس الشعائر التي يصنعها في حجّه وأثناء دعائه لرَبّه حتى تصيبَ لعنات هجائه خصومه بكل ما يمكن من ألوان الأذى وضروب النحس المستمر .¹

فالهجاء في الجاهلية كان لايزال يُقرن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر ، لعَلّهم من أجل ذلك كانوا يتطيّرون منه ويحاولون التخلّص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. والمعروف أنّ الغزو والنّهب كان دائرا بينهم، غير أنّ المغيرين إن أغاروا ونهبوا إبلا وبينها إبلٌ لشاعر تعرّضَ لهم بالهجاء فاضطّروا إلى ردّها له، يروي الرواة أنّ الحارث بن ورقاء الاسدي أغار على عشيرة زهير، واستاق فيما استاق إبلا له وغلاما، فنظم زهير أبياتا يتوعّده بالهجاء المقذع يقول فيها:

لِيَأْتِيَنَّكَ مِنِّي مَنطِقٌ قَذَعٌ باقٍ كما دنسُ القِبْطِيَّةِ الوَدُكُ

ففزع الحارث وردّ له ما سلبه منه .²

ولعل من أهم أسباب شيوع الهجاء في العصر الجاهلي هو العصبية القبلية، لأنّ الحياة القبلية كانت تستتبع أن يكون الهجاء -أو العداوة التي تقتضي الهجاء قبليا- ولم يكن ثمّة مفرّ من أن يخاطب الشاعر القبيلة المهجّوة بالتوجّه بالكلام إلى شاعرها.

وكان هجاء الشّريف عندهم مما يتذرّع إلى هجاء قبيلته وتشعيثها، لأنّه لا يشرف إلا إذا فخرت القبيلة به وجعلته معقد ألسنتها فيما بينها وعنوان شرفها بين القبائل، قال الجاحظ في سبب ذلك:

(وإذا بلغ السيّد في السؤدد و الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحقّ به، فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبه سيّد عشيرته فهجاه. ولم يكن يسلم من ضروب الهجاء إلا القبائل المغمورة والمنسية، حيث لا يكون فيها خير كثير ولا شر كثير فيسلمون من أن يضرب بهم المثل في قلة ونذالة، بخلاف القبائل التي تعرف بالمناقب والمثالب) ³.

¹ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (في العصر الجاهلي)، دار المعارف، القاهرة، ط ٢٠٠٣/٢٠ ص ١٩٧.

² المرجع نفسه ص ١٩٨.

³ مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب ج ٢ ص ٧٥.

وكان أثر الهجاء في نفوس العرب كأثر أسلحتهم في القتال، لذلك قرنه عبد قيس ابن خفاف البرمجي إلى مايلقى به أعداءه من سيف ورمح ودرع بقول:

فَأَصْبَحْتُ أَعْدَدْتُ لِلنَّائِبَاتِ عِرْضًا بَرِيئًا وَ عَضْبًا صَقِيلًا
وَوَقَعَ لِسَانِي كَحَدِّ السِّنَانِ وَرُمَحًا طَوِيلَ الْقَنَآةِ عَسُولًا
وَسَابِغَةً مِنْ جِيَادِ الدَّرُوعِ تَسْمَعُ لِلسَّيْفِ فِيهَا صَلِيلًا

فالسنان كان يفتك بالأعداء فتكف السيوف والرماح، ويخيل إلى الانسان كأنما تراص شعراء القبائل بجانب فرسانها وشجعانها في صفوف، قد أخذ كلّ منهم يريش سهام هجائه ويرمي به أعداءه من الأشراف والقبائل، وكلّ يحاول أن يكون سهمه أنفذ السهام وأصماها. "1"

من فطاحلة فن الهجاء في العصر الجاهلي:

لاتكاد تجد في شعراء الجاهلية شاعرا توخى الهجو فيفرد له قولاً، وإنما كان هجوهم يأتي في أثناء مفاخراتهم وحماسياتهم وقد ظهرت طبقة من الهجّائين في أواخر عصر الجاهلية، وأكثرهم من المخضرمين الذين أدركوا الاسلام منهم: حسان بن ثابت وابنه عبدالرحمان، وعبدالرحمان بن الحكم، وعبد الله بن الزبيري، والحطيئة. وقد أفردنا بالذكر هذا الأخير. "2"

الحطيئة نشأته وحياته:

هو أبو مليكة جرّول بن أوس العبسي، ولد في بني عبس لايعرف له نسب ولا يصله بالشرف سبب. فشبّ محروماً مظلوماً مذموماً لا يجد مدداً من أهله ولا سندا من قومه، فاضطر إلى الشعر يجلب به القوت و يدفع به العدوان وينتقم به لنفسه من بيئته ظلّمته وطاردته، واصطلحت عليه عوامل الشرّ فجعلت منه صورة للرديلة، فكان كما وصفه الأصمعي سيئ الخلق، دنيئ النفس، فاسد الدّين، كثير الشر، بخيلاً، رثّ الهيئة. وقد بلغ من لؤمه أن هجا أمّه وامرأته. فلما جاء الإسلام أسلم ثم ارتدّ ثم عاد مزعزع العقيدة، فلم يستطع الدّين أن يرفع هذه النفس الوضيعة فمرج لسانه في أعراض الناس واشتدّت وقيعته فيهم، حتى الزبرقان بن بدر صاحب رسول الله (ص) وعامل عمر بن الخطاب لم يعصمه منه إكرامه جواره وإحسانه إليه، فملاً بغيض بن عامر خصمه عليه، ومدح بني أنف الناقة وذمّ الزبرقان، فاستعدى عليه أمير المؤمنين عمر فحبسه واستشفع إليه بشعره فأطلقه وحذّره هجاء الناس. فقال : إنن يموت عيالي جوعاً، هذا مكسبي

"1" شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (في العصر الجاهلي)، ص 200.

"2" جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ج 1، مراجعة الدكتور شوقي ضيف دار الهلال، جامعة القاهرة ط 1 ص 148.

ومنه معاشي فاشترى منه الخليفة أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم. فكفّ حتى مات عمر ثم عاد إلى طبعه ولبث على تلك الحال حتى أسكته الموت سنة ٥٩ هـ. "١"

شعره:

الحطيئة شاعر متين الشعر، غزير البحر، رائق الأسلوب، شرود القافية، متصرف في فنون القول من مديح وهجاء وفخر، ولولا خساسة طبعه ودناءة طمعه، وقبح تبذله لما فضله في المخضرمين احد، والحطيئة كزهير معدود في عبيد الشعر الذين رووا فيه ونقحوه، وقد يؤثر عند قوله: > خير الشعر الحولي المنقح المحكك ، وقلما ما تجد في هجاءه على مرارته فحشا وهجرا، حتى عمي على امير المؤمنين عمر قوله في هجاء الزبرقان:

دع المكارم لا ترحل لبغيّتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فلم يظن إلى موضع الهجاء فيه لدقته حتى دلّه عليه حسان . "٢"

نماذج من شعره:

* يقول في مدح بني سعد:

يسوسون أحلامًا بعيدًا أناةها	وإن غضبوا جاء الحفيظة والجِدُّ
أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البنى	وإن عاهدوا أوفوا وإن عقّدوا شدّوا
وإن كانت النعماء فيهم جزّوا بها	وإن أنعموا لاكدروها ولا كدروا
مطاعين في الهيجا مكاشيف للدجى	بنى لهم آباؤهم وبنى الجِدُّ
وتعدّلني أبناء سعدٍ عليهم	وما قلتُ إلا بالذي علّمت سعدٌ "٣"

"١" عمر فروخ، تاريخ الادب العربي ج ١ (من مطلع الجاهلية الى سقوط الدولة الاموية)، دار العلم للملايين، بيروت ط٤/ ١٩٨١ م ص١٥٦.

"٢" احمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ص١٥٦.

"٣" الحطيئة، ديوانه، شرح حمدو طماس، دار المعرفة، لبنان، ط٢/ ٢٠٠٥ م ص٤٠.

* الهجاء: قال يهجو الزبرقان وقد زعم أنه أساء جوارهم فتحول عنهم إلى بغيض:

والله مامعشرٌ لاموا امرءاً جنبا في آل لأبي بن شماسٍ بأكياس
ماكان ذنب بغيضٍ لا أبا لكم في بائسٍ جاء يحدو آخر الناس
وقد مدحتكم عمدا لأرشدكم كيما يكون لكم مدحي وإمراسي
لما بدا منكم غيب أنفسكم ولم يكن لجراحي منكم آسي
أزمنتُ يأساً مبيناً من نوالكم ولن ترى طاردا للحر كألبياس
جار لقوم أطالوا هون منزله وغادروه مقيما بين أرماسي
ملوا قراه وهرته كلابهم وجرحوه بأنيابٍ وأضراس
دع المكارم لاترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي¹

في تعريف النقائص:

أ- مفهوم النقائص لغة:

(نقض) الشئ نقضا: أفسده بعد إحكامه، يقال: نقض البناء: هدمه ونقض الحبل أو الغزل حلّ طاقاته. وفي التنزيل العزيز: (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) النحل آية ٩٢. وقوله تعالى: (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) النحل آية ٩١ وقوله تعالى: (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) البقرة آية ٢٧ . "2"

والحمل الظهر: أنقله. وفي التنزيل العزيز: (ووضعنا منك وزرك الذي أنقض ظمرك) الشرح آية ٢ أي أنقله. (ناقض) في قوله مناقضة: تكلم بما يخالف معناه، وغيره عارضه. والشاعرُ الشاعر: قال أحدهما قصيدة فنقضها صاحبه عليه راداً على ما فيها معارضا له. "3"

ب- المفهوم الاصطلاحي لفن النقائص:

النقضية قصيدة يرُدُّ بها شاعر على قصيدة لخصم له فينقض معانيها عليه ويقلب فخر خصمه

"1" الحطيئة، ديوانه، شرح حمدو طماس، ص ٨٦.

"2" مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز ص ٦٣١.

"3" المرجع نفسه ص ٦٣٢ .

هجاء وينسب الفخر الصحيح إلى نفسه. وتكون النقيضة عادة من بحر قصيدة الخصم وعلى رويها. "1"

والمختار في النقائض أن تكون طوالاً، وفيها يفتخر الشاعر بنفسه وبقومه، بفضائل نفسه كالشعر والكرم والشجاعة، ثم بأحساب قومه كالحروب التي انتصروا فيها والعهود التي وفوا بها والمحاسن التي أتوها من الكرم والدفاع عن الأعراض والقيام بشأن القبيلة وما إلى ذلك.

بعدئذ ينقّب الشاعر من معائب خصمه وقوم خصمه فيذكرهم جميعاً بالعي والبخل والجبن، حقا كان أم باطلاً ويذكر الحروب التي هزموا فيها والعهود التي نقضوها والمخازي التي عرضت لهم، وإن أعوزته المخازي أو أعوزه شيء لم يتأخر عن اختلاقه. "2"

وفي النقائض اقذاع وفحش وبذاءة كما أنّ المتناقضين غالباً ماتعرضوا للعيوب الخلقية النفسية كالجبن والبخل والغدر والزنا ولم يتعرضوا للعيوب الخلقية الجسدية كالعرج والعمور والاحدياب إلا نادراً ولم يكن هذا محموداً عند النقاد "3"

وقد امتزج -في شعر النقائض- الفخر بالهجاء وكثرت فيها الإشارة إلى ماضي القبائل في الجاهلية وحاضره في عهد بني أمية، حيث يقول الشاعر القصيدة فيردّ عليه خصمه بقصيدة من وزنها وقافيتها، ويتعقّب أفكاره ومعانيه، فيردّ عليه وكأنه يريد أن يظهر تفوّقه عليه من ناحية المعاني ومن ناحية الفنّ نفسه.

أسباب وظروف استحداث غرض النقائض في العصر الأموي:

من الثابت أنّ العرب في جاهليتهم كانوا يعيشون في بيئة فتكت بها الأحقاد والخصومات، وكانت مسرحاً للصراع والفتن والأهواء فحرّموا الأمن والاستقرار، ومن ثمّ لم يكن عندهم تفرّغ للبحث أو العلم أو بناء حضارة، فقد غشيتهم العصبية والحروب. ولما كان العهد الأموي تضخّمت حركة الأدب في الأصقاع وتطوّرت العقلية العربية في هذا العصر تطوّراً واسعاً، وتغيّر كل شيء في حياة الناس، وتحولت الخلافة الإسلامية الرشيدة الزاهدة إلى ملك عضود يتوارثه أبناء البيت الأموي واحداً بعد الآخر فتحضّرت العقول تحضّراً سريعاً وألفت حياة الاستقرار والهدوء. "4"

"1" أحمد الشايب، تاريخ النقائض في الشعر العربي، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢ ١٩٥٤ م ص ٣.

"2" عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي ج ١ (من مطلع الجاهلية الى سقوط الدولة الاموية)، ص ٣٦٢.

"3" أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده ج ٢ ص ١٧١.

"4" فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين ص ٧٠.

وقد كان لهذه السياسة الجديدة أثرها الواضح في الأدب والشعر وظهرت طبقة من الشعراء اتخذوا من شعرهم أظفارا وأنيابا مزّقوا بها الأعراض، وأشاعوا هجر القول في الناس وتفرّج حينئذ من الهجاء فن يُعدّ من أكثر الفنون الشعرية تعقيدا وهو فن: النقائض كان ملهاة للشعب بالمعنى الدقيق على نحو ما تصوّر ذلك نقائض جرير والفرزدق. "1"

ولكي يتّضح ذلك لابدّ من الوقوف قليلا عند التطوّر الذي حدث في حياة العرب حين نزلوا في المدينتين العراقيين الكبيرتين البصرة والكوفة اللّتين أمر عمر بن الخطاب بتأسيهما للجيش المحاربة في الشرق، فقد أخذ العرب يعيشون فيهما معيشة مدنية جديدة يقدمها لهم الفرس وغيرهم من الموالي إذ ملئت الفتوح ورواتب الدولة حجورهم بالأموال فابتنوا القصور واتّخذوا الرقيق والجواري، وقاموا على خدمتهم في جميع جوانب حياتهم خدمة نقلتهم من حياة البداوة الخشنة إلى حياة الحضارة الناعمة، وسرعان ما شعروا بالفراغ والتعطّل على عادة سكان المدن، وهو شعور يؤهل دائما لنشاط الحياة الفنية، إذ يضطرّ أهلها بسبب الفراغ الهائل إلى العناية بالثقافة وبعض ضروب الفن، حتى يقطع جوانب من أوقات هذا الفراغ أو حتى يملؤوها وهو ماحدث فعلا في المدينتين العراقيتين إذ أخذ أهلها يُعَنون بالدراسات الدينية والأدبية وتطلّعوا إلى التزوّد بالثقافات الأجنبية، وبجانب ذلك أخذوا يُعَنون بفنّ جديد يلهون به ويملؤون جانبا من أوقات الفراغ الهائلة التي يشعر بها أهل المدن. "2"

ولم يكن الفنّ الجديد الذي عُني به البصرة والكوفة سوى النقائض وخاصة عند شاعريها: جرير و الفرزدق إذ استطاعا أن ينفذا من خلال الهجاء إلى هذا الفنّ الحديث وأن يتطورا به تطورا واسعا، بحيث يصبح مادة حقيقية في البصرة للهو والتسلية وقطع أوقات الفراغ. وبمجرد معرفة أنّ جريرا التميمي كان يقف ضد الفرزدق مدافعا في نقائضه عن قبيلة قيس المعادية لقبيلته يتضح أنّنا لسنا بإزاء فنّ الهجاء العام وإنّما نحن بإزاء فنّ جديد أقرب إلى أن يكون مناظرة بين الشاعرين التميميين، فالفرزدق يدافع عن تميم وجرير يدافع عن قيس، دفاعا حارّا لمدة ٤٠ سنة أو تزيد، وقد اتّخذوا من سوق المربد بجوار البصرة مسرحا لهذه المناظرة الكبيرة فكانا يختلفان إلى هذه السوق ويختلف معهما الناس ليسمعوا إليهما وليقطعوا بعض أوقات الفراغ. "3"

"1" شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، القاهرة ط ٢/ ١٩٨٤ م ص ٤٠.

"2" شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر الاسلامي ص ٢٤١.

"3" شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة ط ٨/ ١٩٨٧ م ص ١٣٨.

عُدَّت النقائض ملهاة للشعب - ومن يدرسها و يتعقَّب أخبارها عند جرير والفرزدق وغيرها من الشعراء الذين كانوا يزاولون هذا الفن- يعرف أن جمهور البصرة في سوق المرَبَد وكذلك جمهور الكوفة في سوق الكُناسة، كانا يتحلَّقان حول الشاعرين المتناقضين للفرجة عليهما وللهو والتسلية، ويورد عليها الشاعران من الهجاء المقذع الساخر ومن الفكاهات اللاذعة ما يجعلهما يغرقان في الضحك، وكثيرا مايفضي الجمهور إلى التصفيق حتى يعجبه بيت عند الشاعر وقد يفضي إلى الصفير و الصياح ، وعلى هذه الشاكلة كانت النقائض فنا يراد به تزجية أوقات الفراغ لسُكان البصرة والكوفة.¹

قيمة النقائض الأموية:

أول جانب يدرس من حيث فوائد النقائض هو الجانب اللغوي فالمقرر ان الفاظ اللغة الدائرة في عصر ما انما هي تراث الماضي البعيد وثمره عصور سحيقة تعاقبت عليها بالزيادة والنقص والتصحيف سواء في المعاني والالفاظ والعبارات والاساليب، لان كل عصر يتخذ مادة اللغة وسيلة للتعبير فيكيّفها إلى حدّ ما بحسب أغراضه ويضفي عليها روحه ومواهبه لذلك يجمع العصر اللغوي الواحد خليطا من القديم والحديث ويحيي مجموعات من الألفاظ ويميت أو يضعف أخرى حسب حاجته الكلامية.²

ولمّا كانت النقائض الأموية نهضة فنية خاصة نشطت بعد فتور وقوية بعدما كانت ضعيفة، واعتمدت على فنّي الفخر والهجاء أكثر من غيرهما كان من الطبيعي أن يكثر استعمال السباب والبذاء هجاء ، وألفاظ الفخامة والتهويل والاعتزاز فخرا، وإذا كانت الأحساب وقفا في الجاهلية على النجدة والمروءة والشجاعة والكرم فإنّ هذه الأحساب زادت في الاسلام معاني نصره الدين وكذلك المثالب اتسع معناها فشملت عكس ماذكر، وكان معنى (أنصر أخاك ظالما أو مظلوما) يُفهم على حقيقته في الجاهلية، ثم فسر في صدر الإسلام تفسيراً آخر ولكنه عادا معناه الحقيقي القديم في بعض البيئات الإسلامية التي أعادت الحمية الجاهلية سيرتها الأولى.³

ولما كانت النقائض كثيرة العدد مديدة الطول كثرت قوافيها فاضطرّ الشعراء إلى إحياء قوافٍ قديمة وحديثة سداً لحاجة النظم واستكمالا لأبواب المناقضة والملاحات فظهرت ثروة لغوية أكسبت المعاجم مادة غزيرة.⁴

¹ "شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، ص ٤٣.

² "احمد الشايب، تاريخ النقائض في الشعر العربي، ص ٤٤٦.

³ "عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي ج ١ (من مطلع الجاهلية الى سقوط الدولة الاموية)، ص ٣٦٦.

⁴ "مصطفى عبدالرحمان ابراهيم، في النقد الأدبي القديم عند العرب ص ١٠٤.

وقد وضعت أمام الشعراء والخطباء ذخيرة كلامية نافعة، وهناك معان تولدت أثناء هذا الحوار المتواتر كموت الهوى في قول جرير:

فَلَمَّا التَّقَى الحَيَّانَ أَلْقَيْتَ العَصَا وَمَاتَ الهَوَى لَمَّا أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ¹

ولفخامة شعر النقائض وبداوة فحوله حيّ الغريب من اللّغة ولاسيما على لسان الفرزدق الذي قيل فيه لولا شعره لذهب ثلث اللغة كما سجّلت النقائض أسماء الأيام العربية والجاهلية خاصة، ممّا دعى الشُّراح إلى إيراد أخبارها فكانت مادة للتاريخ والقصص غزيرة نافعة. واستطاع النظم أن يضبطها هي وأسماء الأماكن والمدن والقرى، وإن تثنى أو جمع مفردا كالكواظم في كاظمة وهكذا.²

ومن الجانب الأدبي تُعدّ النقائض رقيّاً عظيماً للشعر القديم ذلك لأنها قامت على أساس المنافسة والتّحدي، فاجتهد شعراؤها في تجويدها من حيث المعاني والألفاظ والصور والأساليب، ويمكن اعتبار النقائض إلى حد كبير امتدادا ناضجا للشعر الجاهلي وتطوّرا خطيرا له، وربّما كانت تأريخا للحياة الجاهلية وأيامها وحوادثها ورجالها، حيث ظهرت الروح الجاهلية في شعرهم واضحة كقول الفرزدق:

وقد علم الجبرانُ أنّ قُدُورَنا ضوامِنُ للأرزاقِ والرَّيحُ زفرفُ

نُعجّلُ للضيفانِ في المحلِّ بالقرى قُدُورا بمعبوطٍ تمُدُّ وتُغْرِفُ

تري حولهنّ المُعتَفين كأنَّهُم على صنم في الجاهلية عُكُفُ³

كان شعر النقائض جزلا فخما غريب الألفاظ وكان شعر الغزل والسياسة سهلا مأنوسا مألوف الألفاظ فالنقائض تأخذ معانيها من الماضي كثيرا بعكس هذين فكانت معانيهما إسلامية حديثة من واقع الحياة الجارية، فقد عُدّت النقائض مشغلة الفحول في حين شغل بالسياسة والغزل من همّ دونهم مكانة وجلالا. وقد نما الغزل في الحجاز، والنقائض فغي العراق، وغلب الشعر السياسي على العراق أيضا.⁴

¹ أبو عبيدة معمر بن المثنى، شرح نقائض جرير والفرزدق ج ٢، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، لبنان ط ١٩٩٨م ص ٦٤.

² أحمد الشايب، تاريخ النقائض في الشعر العربي، ص ٤٤٨.

³ إيليا الحاوي، شرح ديوان الفرزدق ج ٢، دار الكتاب اللبناني، لبنان ٢٠٠٩م ص ٥٩٨.

⁴ شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص ٤١.

وربما صوّرت النقائض لعصرها الاجتماعي بشكل أوسع وأوفى، ذلك لأنّ الفحول لم يفرغوا للسياسة فراغ شعراء السياسة وإنما عاشوا حياة إجتماعية بدوية جاهلية تؤثر فيها العصبية القبلية والتقاليد الاجتماعية، كما دلّت النقائض على مقدار الثروة الضخمة التي كانت في يد الخلفاء والأمراء بما لا يسها من جوائز الشعراء والمنافسة الاقتصادية بين قيس وتغلب في بلاد الجزيرة وهذه الأرستقراطية الأموية القائمة على عناصر الجنس والمال كلها أيضا إشارات إلى ما يمكن أن تضيفه النقائض من معارف اجتماعية واقتصادية في ذلك العصر الذي انشئت فيه.¹

أبرز شعراء النقائض الأموية:

وفد جرير على الحجاج يوما فسأله: علام تشتم الناس وتظلمهم؟ فقال جرير: والله إني ما أظلمهم ولكنهم يظلمونني فأنتصر. وأخذ يسرد له من التحم بهم في الهجاء فكان ممن ناقضوه: البعيث المجاشعي والفرزدق، والأخطل التغلبي، والرّاعي من قيس، وعلى أية حال فهناك رواية للأصمعي تنصّ على أنّ من هجاهم جرير بلغوا ثلاثة وأربعين شاعرا وهي صريحة في أن المهاجاة كانت من الجانبين. غير أن عمّد ذلك العصر في فنّ النقائض هم الأخطل وجرير والفرزدق.²

(أ)- **البعيث المجاشعي:** هو خُداش بن بشر، من بني مجاشع وأمه أصبهانية يقال لها مرده أو وردة، وإنما لقب البعيث لقوله:

تبعث منّي ماتبعثُ بعدما أمرت قواي واستمرّ عزيمي

أراد أنه قال الشعر بعدما أسنّ وكبّر، ويكنّى أبا مالك. وكان البعيث أخطب بني تميم إذا أخذ القناة، وله عقب بالبادية وكان يهاجي جريرا. وقال أبو عبيدة: سألت بعض بني كليب فقلت: ما أشدّ ما هجيتم به؟ قال: قول البعيث:

ألسّت كُليبيّا إذا سيم خُطة أقرّ كأقراء الحليّة للبعل

وكلّ كُليبيّ صحيفّة وجهه أذلّ لإقدام الرّجال من النّعل³

(ب)- **الراعي:** هو عبيد بن حصين النّميري من قبيلة نمير التي هجاها جرير في بيته المشهور، وسُمي الراعي لكثرة وصفه الإبل وجودة نعته إيّاها. وهو شاعر فحل، وكان مقدّما على سائر الشعراء حتى اعترض بين جرير والفرزدق... فأسكتفه جرير فابى أن يكف، فهجّاه

¹ أحمد الشايب، تاريخ النقائض في الشعر العربي، ص ٤٦١.

² الطاهر أحمد مكي، مقدمة في الادب الاسلامي المقارن، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة ط ١/ ١٩٩٤م ص ٥٧.

³ ابو محمد مسلم بن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء ص ١٩٥.

بالقصيدة المشهورة والتي منها هذا البيت:

فُعُضَّ الطَّرْفِ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَ كَعْبًا بَلَعْتَ وَلَا كِلَابًا¹

ولذلك كان الراعي يقضي للفرزدق على جرير، وهو السبب في هجاء جرير له، والراعي معدود من أصحاب الملحقات ومطلع ملحمته:

ما بالُ دف بالفراش مذيلا أقدَى بعينِكَ أم أردت رحيلًا²

(ج)-الأخطل:

هو مالك غياث بن غوث التُّغَلْبِي، نشأ في الجزيرة الفراتية في قومه تغلب على النصرانية، فجع في أمه وهو صغير، ربته زوجة أبيه وأساءت تربيته فشبّ سليط اللسان خبيث النية مدمن للخمر، وبدت بواكير شعره منذ الحداثة فهاجى كعب بن جعيل فأخمله وهبّ ذكره يسير. ولمّا طلب يزيد من معاوية وهو ولي العهد من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار لتعرّض عبدالرحمن بن حسان لأخته في شعره خشى الأنصار ودلّه على الأخطل رجاء أن يفتكوا به، فكان ذلك سببا في صعود نجمه وذيوع إسمه، اتصل بيزيد وهجى الأنصار فغضبوا وشكوه إلى معاوية فحكمهم فيه، فطلبوا قطع لسانه. ولكن يزيد ترصّاهم فعفوا عنه، وعرف به خلفاء بني أمية فقدموه وأكرموه، وبخاصة عبدالملك بن مروان، لأنه استعان به على قبائل قيس وشعرائها، وقد أغدق عليه عطاءه وسماه شاعر الخليفة.

أمّا دخوله في المهاجاة بين جرير والفرزدق فسببه أنه عرض بتفضيل الأخير حين سئل أيهما أشعر، فلمّا بلغت حكومته جريرا فغضب وهجى الأخطل بأبيات منها:

ياذا العباوة إنّ بشرًا قد قضى ألا تجوز حكومة النشواني

فردّ عليه الأخطل في شيء من الضعف لتقدّم سنّه وفتور طبعه، وقد اعترف بذلك جرير في قوله لابنه: (أدركته وله ناب واحدة، ولو أدركته وله نابان لأكلني) . وما زال الأخطل أثيرا عند بني أمية حتى أقصاه عمر بن عبدالعزيز، توفي أول خلافة الوليد سنة ٩٥ هـ بالغا من العمر ٧٠ سنة³

¹”جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٥٩.

²”ابوزيد محمد بن أبي الخطّاب القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام، نهضة مصر للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٨١ م ص ٧٢٩.

³”احمد حسن الزيات، تاريخ الادب العربي ص ١٦٢.

شعره:

الأخطل الثلاثة المتقدمين في هذا العصر وهم جرير والفرزدق. وأتفق الناس على أنهم أجود معاصيرهم شعرا وأسيرهم ذكرا، ولكن اختلفوا في أيهم أشعر إخوته، والحق أن لكلّ منهم مزية وميزة.

نماذج من شعره:

أ-المديح: قال يمدح عبد الملك بن مروان:

نفسى فداء أمير المؤمنين إذا أبدى النواجذ يوماً عارم ذكر
الخائض الغمر والميمون طائرُه خليفة الله يستسقي به المطر
حشد على الحق عيافوا الخنا أنف إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
أعطاهم الله جدّا يُنصرون به لا جدّ إلا صغير بعد مُحْتَقِر
شمسُ العداوة حتّى يُستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا رقدوا¹

ب-الهجاء: قال يهجو الأنصار:

وإذا سبت الفريعة خلتَه كالجحش بين حمارة وجمار
لعن الإله من اليهود عصابة بالجزع بين صئيل وصرار
قومٌ إذا هدر العصير رايتهم حُمرا عيونهم من المسطار
خلّوا المكارم لستم من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجار²

¹ "أحمد حسن الزيات تاريخ الادب العربي ص ١٦٣.

² "عمر فروخ، تاريخ الادب العربي ج ١ (من مطلع الجاهلية الى سقوط الدولة الاموية)، ص ٢٥٦.

الفصل الثاني : مشاهير فنّ النقائض في العصر

الأموي

المبحث ٠١ : الفرزدق:

- نشأته وحياته
- حسب الفرزدق ونسبه
- نماذج من شعره
- فلسفته في الحياة

المبحث ٠٢ : جرير:

- نشأته وحياته
- نسب جرير
- نماذج من شعره
- فلسفته في الحياة

* أسباب نشوب الحرب الكلامية بين جرير والفرزدق.

المبحث ٠٣ : أبعاد الشعر الهجائي النقائضي في العهد الأموي:

- استفحال الشعر الهجاء السياسي
- تحوّل الهجاء عند الفرزدق وجرير الى نقائض

الفـرزذق:

أ- حياته ونشأته :

هو أبو فراس همّام بن غالب بن صعصعة من مُشاجع بن دارم بني تميم. كان الفرزدق من فرع من بني تميم وكان والده غالب يحيي حياة بدوية ويملك إبلا وأنعاما كثيرة ولما بنيت البصرة في ١٤ هـ نزل جنوبها واشتهر هنالك بكرمه. وأمّ الفرزدق لينة بنت قرصة الضبية، وجدته لأبيه ليلي بنت حابس أخت الأقرع بن حابس، أمّ الفرزدق نفسه فقد ولد في كاظمة نحو سنة ٢٠ هـ (٦٤٢ م) في خلافة عمر بن الخطاب ونشأ نشأة بدوية والفرزدق لقب له لغظ وجه وشبهه بالرغيف. ^١

كانت ولادة الفرزدق وولادته بالبصرة، درج في عُشّ الأدب وشبّ في ربوع الفصاحة. أخذ أبوه يرويه الشعر ويعلمه القريض حتى تفتّقت قريحته، انطلق به لسانه فقد قدمه أبوه ذات يوم إلى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه بعد واقعة الجمل مفتخرا بجودة شعره على صغره فقال له عليه السلام: اقرأ القرآن فهو خير له فارتسمت هذه الكلمة في ذهن الفرزدق حتى كبر، وصمّم على حفظ القرآن فقيّد نفسه وأقسم أن لا يفكّ حتى يحفظه وبرّ بيمينه. ثم اتّصل بولاية المصريّين فنالهم بالمدح والهجاء أجازوه بالإدناء والاقصاء ومدح خلفاء أمويين بالشام ولاسيما عبدالملك فوصلوه ولكنه لم ينفق عندهم لتشييعه لآل علي.

كان الفرزدق معاصرا لجرير وكان بينهما تنافس وتحاسد. فماكاد يحتدم الهجاء بين جرير وبين شاعر آخر إسمه البعيث حتى وقف الفرزدق في صفّ هذا الاخير وأزره فغاظ ذلك جريرا فهجى الفرزدق، وردّ عليه هذا فاستطار بينهما الهجاء ونمّا فيهما قوة المبادهة والمجادلة وانشعب الناس في أمرهما شعبيتين تناصر كل منهما أحد الشعارين. وجعل أحد أشياع الفرزدق أربعة آلاف درهم وفرسا لمن يغلبه على جرير وكان الفرزدق فاجرا فاحش النطق، خبيث الهجاء، ضعيف الدين، قاذفا للمحسّنات، وقد استعان بكلّ رذائله وفضائله على جرير فما هزمه ولا أسقطه. ^٢

كما كانت له مواقف محمودة في الذود عن آل علي تجلت فيها صراحته وشجاعته، كموقفه يوم التقى بهشام بن عبدالملك في الحجّ يقول حينما رأى علي بن الحسين في موضع التجارة بين الناس: من هذا؟ تجاهلا لأمره وغضا من قدره فشقّ ذلك على الفرزدق قاجابه بقصيدته التي مطلعها:

هذا الذي تعرّف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحلّ والحرم.

^١ عمر فروخ، تاريخ الادب العربي ج ١ (من مطلع الجاهلية الى سقوط الدولة الاموية)، ص ٦٤٩.

^٢ احمد حسن الزيات تاريخ الادب العربي ص ١٦٤.

فحبسه هشام ثم أطلقه بعد هجائه إياه . أسنّ الفرزدق حتى قارب المائة وتوفي بالصبرة سنة ١٠٠هـ / ٧٣٨م.

ب- شخصيته:

الفرزدق رجل شهوة فاجرة صارخة استولت على قلبه فافقدته الإخلاص في المودة حتى لأدنى الناس إليه. كان عميق الإحساس لتفوقه وامتيازته وكان يحسّ هذا الامتياز منذ نشأته فهو طموح عالي الهمّة ويبدو ذلك في القطعة التي تظهر أنّها أول شعره يخاطب بها أمّه وقد أرسلته في غنم يرعاها - وكان غلاما- فأغار عليه الذئب فاخطف كبشا فلما راح إليها لامته فقال:

ولايمّتي يوماً على ماأنت به صُروفُ اللَّيالي والخُطوبُ القوارعُ
فقلتُ لها فيبي إليك وأقصري فأومُ الفتى سيفٌ بوصلئيه قاطِعُ
تلومُ عليّ أن صبّح الذئب ضأنها فألوى بكبشٍ وهوفي الرّعي راعُ
وقد مرّ حولٌ بعد حولٍ وأشهرَ عليه ببؤسٍ وهو ضمّانٌ وجائِعُ
وماكنت مضياًعاً ولكنّ همّتي سوى الرّعي مفطوماً و إذا أنا يافعُ "١"

وقد صادف هذا الطموح وهذا الشعور بالامتياز من طبع الفرزدق خشونة وجفاء، فبلغ به حدّ الجنون والمرض، فهو لا يرى أنّ قبيلته ستجد من يملأ فراغه ويحلّ محلّه إن مات:

ألا ليت شعري ماتقول مُشاجعُ إذا قال راعي النيبُ أودى الفرزدقُ
ألم أكُ أكفئها وأحمي ضمّارها وأبلغ أقصى ما به متّعَ لُقُ "٢"

وحياة الفرزدق بعد ذلك - كما تعكسها أشعاره- يغلب عليها طابع زوجته النّوار وخصمه جرير، وكانت النّوار بنت عمّه خطبها رجل من بني أمية ورضيت به وجعلت أمرها إلى الفرزدق فقال لها: اشهدي لي بذلك على نفسك شهوداً، فقعدت واجتمع الناس لذلك. فتكلّم الفرزدق ثم قال: اشهدوا أنني قد تزوجتها وأصدقته كذا وكذا، فأنا ابن عمّها وأحقّ بها، فبلغ ذلك النّوار فأبته وطلبت الطلاق منه فلم تجد شهوداً على الفرزدق لأنّ الناس كانوا يخافون هجاءه، ولجئت إلى بعض القبائل فكان هجاؤه يطاردها من قبيلة لأخرى، حتى قدمت مكة ونزلت على بنت منظور واستشفعت بها إلى زوجها عبدالله بن الزبير. "٣"

"١" عبد الله الصاوي، شرح ديوان الفرزدق، مطبعة الصاوي شارع الخليج المصري، مصر ص ٥١٣.

"٢" محمد محمد حسين، الهجاء والهجّاءون في الاسلام ص ١٧٥.

"٣" كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي ج ٢، ترجمة الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة ط ٤ ص ٢١٠.

وقدم الفرزدق مكة ودخل على ابن عبدالله بن الزبير، وعاونوه عند أبيهم، فلما أطاع عبدالله زوجته في المدافعة على النوار هجا الفرزدق عبدالله. ثم خرج عبدالله يوما إلى المسجد فرأى الفرزدق في بعض طرق مكة وقد بلغته أبياته التي قالها، فقبض ابن الزبير على عنقه فكاد يدقها ثم قال للنوار إن شئت قتلته وإن شئت سيّرته، فلما كرهت ذلك حبّب لها الزواج من ابن عمّها ورضيت أخيرا، وساق الفرزدق إليها مهرها ودخل بها. ثم خرجا من مكة وهما عديلان في محمل، فكانت لاتزال تخالفه لأنها كانت سالحة الدّين، وتكره كثيرا من أمره فتزوج عليها حدراء بنت زيق من بني قيس وهم نصارى. أغضب النوار بمدحه لحدراء فبعثت إلى جرير تشكو إليه فهجا الفرزدق و حدراء. "1"

فلا ماتت حدراء تزوج الفرزدق أعرابية أخرى فتخاصما شرّ تخاصم، وسعت إلى الطلاق منه حتى رضي أخيرا وطلقها. وذكر الفرزدق في شعره كلّما جرى له مع النوار وكان جرير يجاوبه على مايقول. "2"

وبهذا يتجلى شيوع غرض الهجاء عند الفرزدق وجرير حتّى في مجريات الحياة الخاصة.

ج- حسب الفرزدق ونسبه:

كانت قبيلة تميم في الجاهلية وثنية إلا نفرا قليلا منها اتخذوا النصرانية دينهم، وفي فرع من فروعها هو فرع دارم وُلد الفرزدق لأسرة استقراطية من بني مشاجع إذ كان جدّه صعصعة أحد سادة العرب وأشرفها في الجاهلية، ذاع صيته لمكرمة كان يقوم بها وهي افتداء البنات من آبائهنّ بالمال حتى لا يندوهن حتى لقّب بمحيي المؤودات وفيه يقول الفرزدق:

أبي أحدُ الغيثين صعصعةُ الذي متى تخلف الجوزاء والنجم يُمطرِ
أجار بناتِ الوائدينَ ومن يُجر على الفقرِ يعلم أنه غير مُخفّرٍ "3"

وكان أبوه غالب على مثال جده، فهو أحد سادة بني تميم وأصحاب الشرف في الاسلام، كان كريما مفرطا ويؤثر عنه حادثان يدلان على أنه كان بحرا قيّاضا من بحار العرب. أمّا الحادث الأول فمُلخّصه أنّ ثلاثة نفر من قبيلة كلب تراهنوا على أن يختاروا من تميم وبكر أشخاصا ليسألوهم، فأبهم أعطى ولم يسألهم عن نسبهم كان أفضلهم، واختار كلّ منهم شخصا ووقع اختياراهم على عمير بن السليك الشيباني وطلبة بن قيس بن عاصم المنقري وغالب بن صعصعة

"1" كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي ج ٢، ص ٢١١.

"2" المرجع نفسه ص ٢١٢.

"3" شوقي ضيف، تاريخ الادب العربي (العصر الاسلامي) ص ٢٦٦.

وذهبوا أولاً إلى عمير فسألوه ١٠٠ ناقة، فسألهم من أنتم؟ فأنصرفوا عنه إلى طلبة فصنع صنيعة، فوَلَّوْا وجوههم نحو غالب فأعطاهم ماسألوا ولم يسألهم من هم. فساروا ليلة ثم رَدُّوا ما أخذوا وأخذ صحب غالب الرهن، وفي ذلك يقول الفرزدق :

وَإِذَا نَادَبْتُ كُلُّبٌ عَلَى النَّاسِ أَتَيْهِمْ
أَحَقُّ بِتَاجِ الْمَاجِدِ الْمُتَكَبِّرِ
عَلَى نَفْرِ هُمْ مِنْ نِزَارِ ذَوِي الْعُلَا
وَأَهْلِ الْجَرَائِمِ الَّتِي لَمْ تُهْدَمِ
فَلَمْ يَجُلْ عَنْ أَحْسَابِهِمْ غَيْرَ غَالِبِ
جَرَى بَعْنَانِي كُلَّ أَبْيَضٍ خَضْرِمِ^١

فأمَّا الحادث الثاني فملخصه أنَّ بني يربوع وبني دارم أصابتهم سنة فانتجعوا بلاد كلب، ولَمَّا حلُّوا هناك بادر غالب فعقر للناس ناقة وأطعمهم إياها، فصنع صنيعة سحيم بن وثيل اليربوعي فنحر ناقة للناس، فقيل لغالب: إنه ينافسك، فقال كلاً ولكنه امرؤ كريم وسأنظر ذلك ونحر اثنتين من نوقه فصنع سحيم صنعه، فحرس عشر فنحر سحيم عشر، حين إذا نحر ابله كلاً ويقال كانت مائة وكان ذلك في مكان يسمى صوعر، كرره الفرزدق في شعره وكرّره كثيراً.^٢

وكانت أم الفرزدق من ضبّة من أسرة شريفة وتسمى لينة وهي أخت العلاء بن قرظة، وكان شاعراً ويروى أنَّ الفرزدق كان يقول: أتاني الشعر من قبل خالي. وكثير من فخر فرزدق مقسّم بين آبائه وأخواله. لذا كان يتلفّع بأردية الشرف في شعره.

على كلّ حال نشأ الفرزدق وشبّ في أسرة تعتزّ بنسبها وكرمها وجودها فطبعته بطوابعها، ولعلّ ما يصور ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أنّه باع بعض إبل له في عهد زياد بن أبيّة، فلَمَّا أمسك بالمال في حجره عييره بعض الناس أنه يبيع إبله ويكتنزه أثمانها، على غرار أبيه، فنثر ثمن الإبل وألقى كلّ ما معه على الناس تشبُّهاً بأبائه.^٣

وهذا كرم فيه تهوّر وعدم مبالاة، واحتذاء على أخلاق الجاهلية، فحين توفي صديقه بشر بن مروان وكان والياً على العراق عقر الفرزدق فرسيه على قبره وتلك سنة جاهلية ومن هنا يأتي تهوّر في كرمه واعتداده بأبائه. وبالرجوع إلى ديوانه نجد أكثره يدخل في باب الفخر بالأباء والأجداد والأحساب في عشيرته بل في تميم كلاً حتى يصبح بوقها المدوّي في ذلك العصر.^٤

^١ عبد الله الصاوي، شرح ديوان الفرزدق ص ٤٧٧.

^٢ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) ص ٢٦٧.

^٣ شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ١٤٥.

^٤ المرجع نفسه ص ١٤٦.

د- نماذج من شعر الفرزدق:

كان الفرزدق فخوراً بأصله ولوعاً بتعدد مآثر آبائه، فغلب شعره في الفخر، ولغة الفخر تقتضي الألفاظ الضخمة، والأساليب الفخمة، والكلم الغريب واحتذاء البادين في أساليبهم، لذلك أعجب به الرواة، وفضله النحاة، على أنه طالما تألم من شعره متمنياً أن تكون له رقة جرير لعهره، وجرير صلابته لطهره، وفي ذلك تأييد منه لحكم الأخطل إليهما بقوله: الفرزدق ينحت من صخر، وجرير يغرف من بحر، والفرزدق بعد ذلك في الهجاء مقذع، وفي الوصف مبدع وفي المديح وسط وفي الرثاء متخلف.¹

(1) من شعر الفرزدق في المدح: يقول في مدح علي بن الحسين:

هذا الذي تعرفُ البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا النقي النقي الطاهر العلم
وليس قولك (من هذا) بضائره	العرب تعرف من أنكرت والعجم
إذا رأته قرئش قال قائلها	إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يغضي حياء ويغضي من مهائبه	فما يكلم إلا حين يبتسم
يكاد يمسكه عرفان راحته	ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
ينشق نور الهدى عن نور غرته	كالشمس تنجاب عن إشراقها القم ²

(2) وقال في الشكوى: للاسود بن الهيثم النخعي ابي العريان:

إني كتبت إليك التمس الغنى	بيديك أو بيدي أبيك الهيثم
أيد سبفن إلى المنادي بالقرى	والبأس في سبل العجاج الأقم
والمصلحات بمالهن ذوي الغنى	والخاضبات قنا الأسنة بالدم
إني حلفت برافعين أكفهم	بين الحطيم وبين حوض زمزم
لنأتينك مني مدحة مشهورة	غراء يعرفها رفاق الموسم ³

¹ أحمد حسن الزيات تاريخ الادب العربي ص ١٦٥.

² ايليا الحاوي شرح ديوان الفرزدق ص ٣٥٤.

³ المرجع نفسه ص ٤٧.

(3) من شعر الفرزدق في الفخر:

مِنَّا الَّذِي اخْتِيرَ الرَّجَالُ سَمَاحَةً
وَمِنَّا الَّذِي أُعْطِيَ الرَّسُولُ عَطِيَّةً
وَمِنَّا خَطِيبٌ لِأَيْعَابٍ وَحَامِلٌ
وَمِنَّا الَّذِي الْوَيْدُ وَغَالِبٌ
وَمِنَّا الَّذِي قَادَ الْجِيَادَ عَلَى الْوَجَا
بِهِمْ أَعْتَلِي مَا حَمَلَنِي مُجَاشِعٌ
وَأَصْرَعُ أَقْرَانِي الَّذِينَ أُصَارِعُ¹

(4) ومن شعره في الوصف: يقول في وصف ذئب أكل أحد أغنامه حين أرسلته أمه لرعيها:

وَأَطْلَسَ عَسَّالٍ، وَمَا كَانَ صَاحِبًا
فَلَمَّا دَنَا قُلْتُ: أَدُنْ دُونَكَ إِنَّنِي
فَبِتَّ أَسْوَى الزَّادِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَكَثَّرَ ضَاحِكًا
تَعَشُّ فَإِنْ وَاثَقْتَنِي لِاتَّخُونَنِي
دَعَوْتَهُ بِنَارِي مَوْهِنًا فَآتَانِي
وَإِيَّاكَ فِي زَادِي لَمْ تُشْتَرِكْ
عَلَى ضَوْءِ نَارٍ مَرَّةً وَدُخَانِ
وَقَائِمِ سَيْفِي مِنْ يَدِي بِمَكَانِي
نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَأْذُنُ بِصِطْحَبَانِ²

(5) ومن بعض مرثياته: قوله في رثاء محمد بن يوسف ومحمد بن الحجاج بن يوسف وقد ماتا في جمعة واحدة:

لِئِنْ صَبَرَ الْحَجَّاجُ مَا مِنْ مُصِيبَةٍ
مِنَ الْمُصْطَفَى وَالْمُصْطَفَى مِنْ ثِقَاتِهِ
وَلَوْ رَزَنْتَ مِثْلَيْهِمَا هَضْبَةَ الْحَمَى
تَكُونُ لِمَرْزُوءٍ أَجْلٌ وَأَوْجَعُ
حَلِيلِهِ إِذَا بَانَ جَمِيعًا فَوَدَّعَا
لَأُصْبِحَ مَا دَارَتْ مِنَ الْأَرْضِ بَلْقَعَا

¹ عبد الله الصاوي، شرح ديوان الفرزدق ص ٥١٧.

² عمر فروخ، تاريخ الادب العربي ج ١ (من مطلع الجاهلية الى سقوط الدولة الاموية)، ص ٦٦٢.

ورأى الفرزدق في المرأة يدل على جفاء طبع وسوء أنفة، وربما دلّ أيضا على منزلتها في المجتمع في ذلك العصر، ولا يستنبط ذلك من قوله في زوجة جرير فقد يكون للخصومة بعض الأثر في سوئه وإنما يستنبط من قوله في زوجته هو حين ماتت:

يقولون زر حذراء والترب دونها وكيف بشيء وصله قد تقطعا
ولسنت وإن عزت علي بزائر تُرابا على مرموسه قد تضععا
وأهون مفقود إذا الموت ناله على المرئ من أصحابه من تقنعا
يقول ابن خنزير بكيته ولم تكن على امرأة عيني إخال لتدُمعا¹

على أنّ طبيعة المهاجاة مع جرير وشهوة الغلبة عند العامة ونفاذ المعاني في الهجاء على طول المدة وبلادة الحس وهوان النفس باعتماد الذم قد دعت الفرزدق كما دعت جريرا إلى التدرج في الإقذاع والبذاء حتى خرج شعرهما في النقائض على قوته وجودته عن الحدّ المألوف بين السفلة. ولكن الفرزدق مع تبدله كان يصيخ أحيانا الى وازع الدين لتشيّعه فيتوب عن قرض الشعر، ويكفّ عن هجاء الناس ويقيد نفسه لحفظ القرآن ويقول:

ألم ترني عاهدت ربي وإنني لبين رتاج قائما ومقام
على قسم لا أنتمم الدهر مسلما ولا خارجا من فيي سوء كلامي²

¹ عبد الله الصاوي، شرح ديوان الفرزدق ص ٥٢٣.

² أحمد حسن الزيات، تاريخ الادب العربي ص ١١٨.

جـرـير:

أ-حياته ونشأته :

هو جرير ابن عطية ابن الخطفي (وهو حذيفة) بن بدر ابن سلمة بن عوف بن كليب ابن يربوع ابن حنظلة بن مالك بن زيد بن تميم. وهو يلتقي بالفرزدق في جدّهما الأعلى تميم، وأمّه هي أم قيس بنت معيد من بني كليب ابن يربوع. وكذلك كانت جدّته لأبيه وهي نوار بنت يزيد من بني كليب. وُلد جرير خديحا لسبعة اشهر باليمامة، ٣٠هـ / ٦٥٠م ونشأة فقيرا يرعى إبل قومه.

بدأ جرير نظم الشعر في مطلع حياته رجزا ، منذ المهاجة بين غسان ابن ذهل وبني الخطفي في أيام معاوية و أخذ جائزة كانت أول جائزة نالها من خليفة ، بعد هذا عاد إلى اليمامة .

ولما اشتدّ النزاع بين بني أمية و بين عبد الله بن الزبير وقف جرير في صفوف القيسيين من أنصار ابن الزبير يهاجي اليمانيين بني أمية، ثم لجّ الهجاء من الشعراء فانحدر جرير من اليمامة إلى البصرة مركز الحركة السياسية وميدان شعراء المناقضات، وذلك في أثناء ولاية بشر بن مروان على الكوفة (٧١-٧٤هـ)، ثم اتصل جرير بالحكم بن أيوب ابن عم الحجاج وزوج ابنته وعامله على البصرة أواخر (٧٥هـ)، فوجهه الحكم إلى الحجاج فوجه به الحجاج إلى عبد الملك . وكان عبد الملك لا يستمع إلى شعراء القيسيين ولكن توصية الحجاج بجرير أقنعت عبد الملك بالاستماع الى جرير فنال جرير بعد ذلك حظوة عند عبد الملك. "١"

ظلّ جرير أثيرا عند الوليد بن عبد الملك، لكنّه هجر البلاط الأموي في أيام سليمان (٩٦-٩٩هـ)

وفي أيام عمر بن عبد العزيز. لأنّ جريرا كان قد حض الوليد على صرف الخلافة عن أخيه سليمان إلى ابنه عبد العزيز ابن الوليد، ثم لأنّ عمر بن عبد العزيز لم يكن يجيز الشعراء، غير أنّ جرير عاد فمدح يزيد بن عبد الملك و هشام عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ). ولأنّ جرير نشأ بالبادية، فقد شبّ فصيح اللسان صحيح الوجدان مطبوع القريحة على الشعر. "٢"

ولما أنس في نفسه القدرة على قرضه، والجرأة على عرضه، أ البصرة موطن الفرزدق ينتجع الكرماء، و يمتدح الكبراء. فازدهاه مارأى على الفرزدق من حلل النعمة و مظاهر الجاه بفضل الشعر، وهو تميمي مثله، فدبّ في قلبه دبيب الحسد، واشتهى بن يساويه في حسن حاله، ووفرة ماله، فتولدت من تنافسهما وتزاحمهما أسباب المهاجة بينهما وأراد جرير أن يرامي قرنه عن كئيب فترك البادية واستوطن البصرة وغشى المربد . ودخل في كنف الحجاج فحسن موقعه

"١" عمر فروخ، تاريخ الادب العربي ج ١ (من مطلع الجاهلية الى سقوط الدولة الاموية)، ص ٦٦٤.

"٢" المرجع نفسه ص ٦٦٤.

عنده، وطارت مدائحه فيه، حتى بلغت عبد الملك فنفسه على الحجاج . وأحسن الوالي رغبة الخليفة فأوفده مع ابنه محمد الى دمشق ، فلما دخل جرير على عبدالملك استأذنه فأبى ، وقال له بلهجة العاتب الحنق : إنما انت للحجاج! فما زال يتوسل إليه وتحمل بالناس عليه حتى أنشده قصيدته التي مطلعها:

أَتَصْحَوُّمَ فُوَادُكَ غَيْرَ صَاحٍ عَشِيَّةً هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَّاحِ

فلما وصل إلى قوله منها :

أَلَسْتُمُ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحٍ؟

تبسم عبد الملك وقال: كذلك نحن ومازلنا كذلك وأجازه بمائة لقحة وثمانية رعاء، وأصبح جرير بعد هذه القصيدة أثر شاعر عند الخلفاء ولاسيما عمر بن عبد العزيز ولكن زلفاه لدى القصر أشعلت نار الغيرة في قلوب مناظيره فشتوا عليه حرب الهجاء، وأرث هذه الحرب أغراض السياسة، وتحريض الفرزدق وضيق خلقه وحب الناس لمشاهد الخصومة، فنصب لجرير من هؤلاء الأقران ثمانون شاعرا ظهر عليهم جميعا إلا الفرزدق والأخطل فإنهما نازعا الغلبة وثبقا له. ودامت هذه المهاجة سجالا بينهم حتى توفي الأخطل، ففرغ جرير للفرزدق وكانت بينهما النقائض المشهورة التي لهج بها الناس وشغل بها الشعراء، ثم بدا للفرزدق أن يكف فكف وتنسك حتى مات. فمضى جرير لسبيله بعده ببضعة أشهر ودفن باليمامة سنة ١١٠ هـ. "١"

ب- شخصيته: كان جرير من غمار الناس، ولم يكن بالرجل الصلب الذي يقوى على النضال والكفاح، فهو يؤثر العافية يحرص على إرضاء الحكام والرؤساء، ويتقرب بالمدح ضمانا لسلامته واطمئنانه، وطمعا في المال والعطاء، ويبلغ في ذلك حد التلون والنفاق، لا يكاد يصل إلى عبد الملك حتى يرضيه بستم ابن الزبير (أبي خبيب) والتعريض به في أول قصيدة مدحه بها فيقول:

دَعَوْتَ الْمُلْحِدِينَ أَبِي خُبَيْبٍ جِمَاحًا هَلْ شَفِيَتْ مِنَ الْجِمَاحِ
فَقَدْ وَجَدُوا الْخَلِيفَةَ هَبْرِيًّا أَلْفُ الْعَيْصِ لَيْسَ مِنَ النَّوَاحِي
فَمَا شَجَرَاتِ عَيْصِكَ فِي قَرِيْشٍ بَعْشَاتِ الْفُرُوعِ وَلَا الضَّوَاحِي "٢"

"١" احمد حسن الزيات تاريخ الادب العربي ص ١٦٩.

"٢" محمد اسماعيل عبدالله الصاوي، شرح ديوان جرير، مطبعة الصاوي، مصر ط ١ ص ٩٩.

كان جرير لا يبالي غير سلامته، فهو لايهجو إلا من تعرّض له من الشعراء، ولا يعرض لنقد الولاة أو مهاجمة سياستهم لأنّ ذلك قد يعرضه للشر، لكنه يعوّل في ذلك على المدح، ويسوم نفسه في سبيل المال أقبح الذل وأبغض الإلحاف. فهو لاينتظر عطاء من يمدحه ولكنه يصرح بالسؤال مستجديا ويكثر من الشكوى متمسكنا. يقول لعبد العزيز بن الوليد:

إلى عبد العزيز شكوتُ جُهدًا من البيضاءِ أو زمنِ القِتادِ
سنين مع الجرادِ تعرّقتنا فما تبقى السنون مع الجرادِ

ومن دعابته في السؤال الملحف قوله لسيلمان بن سعد صاحب ديوان العطاء باليمامة :

تركتُ عيالي لا فواكه عندهم وعند ابن سعد سُكّر وزبيبُ
تحنّى العظامُ الراجفاتِ من البلى وليس لداء الرُكبتينِ طيبُ
منعتَ عطائي يابن سعد وإنما سبقت إليّ الموت وهو قريب¹

ومع ذلك فلم يكن جرير بالمادح المجيد، فالرقة والسهولة الغالبتان على شعره تحرمان مديحه ماينبغي له من قوة وشدة أسر، فهو لايقع على صفات الملوك والخلفاء ولايعرف كيف يمدحهم لذا كانت السهولة الغالبة على شعره صورة من طبعه السمح، ونفس الرقيقة المطمئنة لأنّ جرير كان رجل مؤمن شديد التمسك بدينه، كان إذا صلّى الصبح جلس في فناء منعزلامام داره لا يكلم أحدا حتى تطلع الشمس، ولايبرح موضعه ولو تناحر الحي. ولقد مرّت به جنازة وهو يملي على رجل قصيدته:

ودّع أمانة حان منك رحيل إنّ الوداع لمن تحبُّ قليل

فقطع الانشاد وجعل يبكي ثم قال: شيبتي هذه الجنازة، ولقى الفرزدق بمنى وهما حاجان فقال له الفرزدق:

فإنك لاق بالمحصّب من منى فخارا فحدّثني بمن أنت فاخر

فلم يجبه إلا بقوله: لبيك اللهم لبيك².

¹ محمد محمد حسين، الهجاء والهجاؤون في الاسلام ص ١٥٢.

² خالد محمود عزّام، جرير شاعر النقائض الاموية والنزعة الدينية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الاردن، ط ١/ ٢٠٠٧م ص ١٦.

ج- نسب جرير:

كان جرير من كلب أحد غصون يربوع، وهو غصن كانت أوراقه جافة وأليافه يابسة إلى حد ما لم تكن له نضرة غصن دارم ومجاشع قوم فرزدق ولا اخضرار أوراقه، فمجاشع كانت في الذروة العليا من تميم، أما كليب فكانت في السفح والطبقة الدنيا، ويعبر المؤرخون لجرير عن ذلك فيقولون إن قومه كانوا يرعون الغنم والحمير فهم ليسوا أهل إبل وخيل. كان جرير يعترف بذلك بل كان يفخر به فقد كان يرى نفسه زهرة جميلة و نبتت في تربة ليس من شأنها أن تنبت الزهر، روى الرواة أن شخصا سأله من أشعر الناس؟ فقال له : قم حتى أعرّفك الجواب، فأخذ بيده فجاء به إلى أبيه عطية وقد أخذ عنزا له فاعتقلها وجعل يمصّ ضرعها فصاح به أخرج يا ابت، فخرج شيخ دميم رثّ الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته، فقال ألا ترى هذا؟ قال نعم، قال أو تعرفه؟ قال الرجل: لا ، فقال جرير هذا أبي أفندري لم كان يشرب من ضرع العنز؟ قال لا، فقال جرير مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن.¹

لم يكن عطية أبو جرير مثل غالب أبي الفرزدق في سؤده و شرفه إذ كان من طبقة أخرى ومعنى ذلك أن جريرا لم يكن له من الشرف والسيادة ما يعتزّ به أمام سيادة الفرزدق ولكن ذلك إن كان قد فاته من النسب فإنه لم يفته في الشعر والفن، إذ استطاع أن يصل إلى مرتبة رفيعة ما لا تقلّ عن الفرزدق صاحب الحسب والنسب الرفيع. وعلى أي حال فإنّ هذه النشأة المتواضعة لجرير جعلت نفسيته تخالف نفسية الفرزدق من وجوه كثيرة، فلم يكن يعتزّ بأبائه وبقبيلته اعتزاز الفرزدق بأبائه وقبيلته. ولعلّ ذلك ما هيّأه لأن يعيش حياته مجاهدا عن قيس ضدّ الأخطل وضدّ الفرزدق وتميم، وقد ترجع أسباب ذلك إلى أموال كانت تصبّ في حجره من قيس ويدل على ذلك أننا نجد الفرزدق يعيّره بما يصيب من قيس في نقائضه معه و مهما يكن السبب أو الأسباب فإنه لا يفهم وقوفه في صف قيس إلا على أنه لم يكن يحس إحساس الفرزدق بقومه، لذلك رضى أن يقف في صفوف خصومه، ولعل من الغريب أن يجده يمدح أعاجم فيقول:

ويجمّعنا و الغرّ أولاد سارة أب لأنبالي بعده من تعذّرا

ومديح الأعاجم في هذا العصر كان يعد كبيرة من الكبائر، ولكنها نفسية جرير التي لم تكن تستشعر العصبية العربية ولا العصبية القبلية على نحو ما يستشعرها الناس والشعراء في عصره. ومن هنا لم يجد بأسا أن يعيش حياته يتغنى باسم قيس ومآثرها في الجاهلية والاسلام.²

¹ خالد محمود عزام، جرير شاعر النقائض الاموية والنزعة الدينية، ص ٢٣.

² شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ١٥٤.

ونفسية جرير هيينة ليينة، فيها تواضع وفيها استكانة، فلم يكن فيها العنف الذي اشتملت عليه نفسية الفرزدق، بسبب تعمق الاسلام فيه من جهة، والتواضع في نشأته وأسرته من جهة أخرى. وإذا كان قد مدح الأعاجم، فأولى به أن يمدح أولي الأمر من بني أمية.¹

د- نماذج من شعر جرير:

برئ جرير من خبث الفرزدق وجفائه وعرف بصفاء الطبع ورقة الشعور، وصحة الدين وحسن الخلق، وظهر أثر ذلك كله في شعره، فامتاز بطلاوة الأسلوب وحلاوة الغزل ومرارة الهجاء وإجادة الرثاء، وحسن التصرف في جميع فنون الشعر. وكان بذلك أظهر في سماء الشعر، وأقرب إلى صفة الشاعر، وأكثر أشياعا من الفرزدق، لأن هذا الأخير لم ينبغ إلا في الفخر.²

(1) من شعر جرير في المدح :

قوله في عبد الملك بن مروان:

أَصْحُو بَلْ فُوَادُكَ غَيْرِ صَاحِ	عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَّاحِ
يَقُولُ الْعَادِلَاتُ عِلَاكَ شَيْبٌ	أَهَذَا الشَّيْبُ يَمْنَعُنِي مِرَاحِي
يُكَلِّفُنِي فُوَادِي مِنْ هَهْوَاهِ	ظُعَائِنِ يَجْتَرِزْنَ عَلَى رُمَاحِ
ظُعَائِنُ لَمْ يَدَنَّ مَعَ النَّصَارَى	وَلَا يَدْرِينَ مَا سَمَكَ الْقِرَاحِ
فَبَعْضُ الْمَاءِ مَاءُ رَبَابِ مُزْنَ	وَبَعْضُ الْمَاءِ مِنْ سُبْحِ مَلَا حِ ³

(2) وقال في الفخر:

حَيُّوا الْمُقَامَ وَحَيُّوا سَاكِنِ الدَّارِ	مَا كَدْتُمْ تَعْرِفَ إِلَّا بَعْدَ انْكَارِ
إِذَا تَقَادَمَ بِهَذَا الْحَيَّا هَيَّجَنِي	خَيَالُ طَيِّبَةِ الْأُرْدَانِ مِعْطَارِ
لَا يَأْمَنَنَّ قَوِيَّ نَقْضَ مِرَّتِهِ	إِنِّي أَرَى الدَّهْرَ ذَا نَقْضِ وَإِمْرَارِ ⁴

¹ عمر فروخ، تاريخ الادب العربي ج ١ (من مطلع الجاهلية الى سقوط الدولة الاموية)، ص. ٦٦٤

² احمد حسن الزيات تاريخ الادب العربي ص ١٦٩.

³ محمد اسماعيل عبدالله الصاوي، شرح ديوان جرير، ص ٧٧.

⁴ المرجع نفسه ص ٣١٠.

(3) النسيب و الوصف: وأثر عنه في الوصف:

أَلَحِيَّي رُبْعَا بِاللَّوَى ذَكَرَ الْعَهْدَ مَحْتَهُ الصَّبَا جَرَّ الْيَمَانِيَةَ الْبُرْدَا
لَهْنِدٍ وَلَوْ أَنَّ الْمَقِيمِينَ بَعْدَهَا أَرَادُوا فِرَاقًا لَمْ أَجِدْ لَهُمْ فَاقِدَا
فِيهَا أَيُّهَا الْعُدَّالُ إِنَّ مَلَامَتِي تَزِيدُ إِذَا لُمْتُمُونِي بِهَا وَجُدَا
يَعِيبُ الْغَوَانِي شَيْبَ رَأْسِي بَعْدَمَا يَفِرُّونَ بِالْمَدَارَةِ دَاجِيَةً جُعْدَا
إِذَا ذَكَرْتَ نَفْسِي تَمِيمًا تَذَكَّرْتَ أُمُورًا تُنْسِينِي الضَّغَائِنَ وَالْحَقْدَا
فَكَيْفَ تَقُولُ السَّيْفُ يَحْمِلُ نَصْلَهُ إِذَا فَارَقَ السَّيْفُ الْمَحَامِلَ وَالْغَمْدَا¹

(4) العتاب والشكوى: وقال في الشكوى لسليمان بن سعد صاحب ديوان العطاء باليمامة:

لَقَدْ كَانَ ظَنِّي يَا ابْنَ سَعْدٍ سَعَادَةً وَمَا الظَّنُّ إِلَّا مُخْطِئٌ وَمَصِيبٌ
تَرَكْتُ عِيَالِي لَا فَوَاكِهِ عِنْدَهُمْ وَعِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ سُكْرٌ وَزَيْبٌ
تَحْنَى الْعِظَامِ الرَّاجِفَاتِ مِنَ الْبَلَى وَلَيْسَ لِدَاءِ الرُّكْبَتَيْنِ طَبِيبٌ
مَنْعَتَ عَطَائِي يَا ابْنَ سَعْدٍ وَإِنَّمَا سَبَقْتَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُوَ قَرِيبٌ²

(5) المراثي: قال يرثي عبدالعزيز بن الوليد:

نَعُوا عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقُلْتُ هَذَا جَلِيلَ الرَّزَاءِ وَالْحَدِيثِ الْكَبِيرِ
فَبِتْنَا لَا نَقِرُّ بِطَعْمِ نَوْمٍ وَلَا لَيْلٍ نَكَابِدِهِ قَصِيرِ
فَهَدَّ الْأَرْضَ مَصْرَعُهُ فَمَادَتْ رَوَاسِيهَا وَنَضَبَتْ الْبُحُورِ
وَأَظْلَمَتِ الْبِلَادُ عَلَيْهِ حَزْنَا وَقَلَّتْ أَفَارِقُ الْقَمَرِ الْمُنِيرِ
وَكُلَّ بَنِي الْوَلِيدِ أَسْرَ حَزْنَا وَكُلَّ الْقَوْمِ مُحْتَسِبِ صَبُورِ³

¹ جرير بن عطية بن حذيفة، ديوانه، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٦م ص ١١١.

² المرجع نفسه ص ٣٩.

³ محمد اسماعيل عبدالله الصاوي، شرح ديوان جرير، ص ٢٢٥.

مذهب جرير في الحياة:

جرير هو الطامة الكبرى، لأنه مرسل العنان مطلق اللسان، لا يعوقه قيد ولا تكبحة شكيمة، فلا صاحب سياسة كأخطل، ولا صاحب نحلة كالفرزدق، ولا وارث مجادة كالثنين، وإنما كان سوقيا ترعية رزقه الله حدة الذهن ورقة الأسلوب وخبث اللسان، وزاده الهراش صلابة عود، وغزارة فكر، وامتانة شعر، وسهولة قافية، فبلغ بالهجاء الفردي و القبلي غايته في الاقذاع والاقناع والقوة. وربما كان أول من أكره الشعر على قبول الأساليب العامية المبتذلة في الهجاء كذكر العورات وهتك المحارم، فاضطر خصومه إلى يكلموه باصطلاحه، و يقاتلوه بسلاحه، وأصبح بعده الهجاء في ذلك العصر لا يفعل في النفوس مشوبا بهذا القدر، ومهاجاة بشار وحماد إلا صورة من هجاء جرير و الفرزدق. "١"

كان جرير لعاميته و بيئته، وللأسباب التي ذكرت من قبل يصطنع في الهجاء أساليب الدهماء، فيعير الأخطل بجبير بالخنزير ، ويقذف أمه وهي أمة سجستانية، ويهاجم الفرزدق في جدته فيئتهما بجبير القين. "٢"

"١" عمر فروخ، تاريخ الادب العربي ج ١ (من مطلع الجاهلية الى سقوط الدولة الاموية)، ص ١١٩.

"٢" المرجع نفسه ص ١٢٠.

كان الفرزدق يذهب في هجائه مذهب الفخر بأبائه فلا يستطيع جرير مجاراته في هذا المضمار فيعمد إلى نقض الفخر بالسخرية اللاذعة والفحش الموجه، وإذا أخذ جرير هذا المأخذ لا يقام له. اقرأ على سبيل المثال الفرزدق حين يقول :

أحلامنا تزُرُّ الجبال رزانةً وتخالنا جنًا إذا مانجهُلُ
فادفع بكفك أن أردت بناءنا تهلان ذو الهضبات هل يتحللُ؟
خالي الذي غصب الملوك نفوسهم وإليه كان حياء جفنة ينقلُ
إنّا لنضرب رأس كل قبيلةٍ وأبوك خُف أتانه يتقممُ

فيجيبه جرير:

كان الفرزدق إذ يعودُ بخاله مثل الذليل يعودُ تحت القرمَلِ
وافخر بضبة إن أمك منهم ليس ابن ضبة بالمعمم الخولِ
أبلغ بني وقبان أن حلومهم خفت فلا يزنون حبة خردل²

يلاحظ أنّ جريرا يرغب في الطريق السهل، و يطفئ حرارة الجلد ببرودة الهزل، فهو في ثوب المهرج وبزته و ضحكته. ولجرير قدرة بارعة على تتبّع الخصم في حياته الخاصة العامة يتسقط أخباره ويتلقط حوادثه ثم يعلنها في شعره تشهيرا به وفضيحة له. وهو لطول ماتمرّس الهجاء وغامر في الخصومة فاحش الدعابة مرّ التهكم ، وأيّ تهكم أمضّ وآلم من مثل قوله:

ياتيم إن بئوتكم تميمية فقد العماد قصيرة الأطناب
قومٌ إذا حضر الملوك وفودهم نتقت شواربهم على الأبواب³

¹ "عمر فروخ، تاريخ الادب العربي ج ١ (من مطلع الجاهلية الى سقوط الدولة الاموية)، ص ١٢٠.

² "ابوعبيدة معمر بن المثنى، شرح نقائض جرير والفرزدق ج ٢، ص ١٦٥.

³ "احمد حسن الزيات تاريخ الادب العربي ص ١٢٢.

كأنّ الهجاء كان في جرير غريزة يرمي الناس بها لأدنى سبب وعلى غير معرفة، فقد دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع العاملي فقال الخليفة لجرير: أتعرف هذا؟ قال لا يا أمير المؤمنين. فقال: هذا رجل من عاملة. قال جرير التي يقول فيها الله: (عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية) سورة الغاشية (3_4) ثم قال بيتاً قبيحاً وردّ إليه عدي بمثله فهجاه جرير بقصيدة منها هذا البيت المشهور:

وابن اللّبون إذا ما لَزَّ في قرنٍ لم يستطع صَوْلَةَ البُزْلِ القنَاعِيسِ¹

ولعلّ ذلك راجع إلى ميل في طبع أمه إلى هذا الضرب من الأيذاء فاشتتت أن تراه فيه، حتى صوّرت لها تلك الأمنية في الحلم، فرأت وهي حامل به أنّ حبلاً نزل منها فصار يثب على الناس ويخنقهم. فلما تأوّلت رآها قيل لها إنك تلدين ولدا يكون شديد الهجاء والبلاء على الناس فسمته لذلك جرير، سواء أرأت أمه هذه الرؤيا أم افترتها فقد كان لها ولا ريب أثر قوي في توجيه قريحته منذ طفولته.²

وضُعب جرير في الفخر إنّما يرجع إلى الموضوع لا إلى الأسلوب، لأنّه أجمل خصومه صياغة وأوفرهم بلاغة، وأرقّهم لفضا وأطفهم مدخلا، ولسهولة شعره وقلة غريبه نطق عند العامة والشعراء دون الرواة والعلماء. هذا هو جرير قريحة فيّاضة وسيل جارف هو بحر يغرف من بحر.³

¹ جرير بن عطية بن حذيفة، ديوانه ص ٢٥٠.

² خالد محمود عزام، جرير شاعر النقائض الاموية والنزعة الدينية ص ١٤.

³ حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الادب العربي (الادب القديم)، دار الجيل، بيروت، ط ١٩٨٦م ص ٤٩٨.

أسباب نشوب الحرب الكلامية بين الفرزدق وجرير:

بدأت قصة النقائض الأموية بين جرير وطائفة من الشعراء حول مشاكل قبلية، من تلك المشاكل التي تحدث عادة بين الناس في البادية، ثم تدخّل في المناقضة عدد كبير من الشعراء بعد فترة دخل الأخطل الميدان. وفي كتاب الأغاني في ترجمته لجرير قصة هذه النقائض يحكيها جرير للحجاج تتلخص في أنّ جريرا يعيش في بادية قومه في نجد، فأنت جماعة من الشعراء يهاجون قومه لسبب خلاف على بئر من الماء، فتصّى لهم جرير مدافعا عن قومه ودارت بينه وبينهم مهاجاة بالرجز أولا ثم تحولت بعد ذلك الى الشعر. ويقول جرير أنّ أول مناقضة كانت بينه وبين شاعر اسمه غسان السليطي، تعرض له ولعشيرته بالهجاء فردّ عليه جرير فأخزاه وغلبه. وانبرى شاعر آخر من قوم الفرزدق اسمه البعيث المجاشعي يهاجي جريرا فردّ عليه هذا الأخير وغلبه.¹

وتدخّل شعراء آخرون في المعركة ولكنهم لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام جرير، فلما طالت الماقضة وشعروا بضعف موقفهم أمامه لجأوا إلى الفرزدق، وكان هذا الأخير قد حبس نفسه في بيته ليحفظ القرآن الكريم بإشارة من علي ابن أبي طالب، ولما استمرّ جرير في هجائه لشعراء مجاشع ذهبت نسوة منهم إلى الفرزدق وسألته أن يخرج من عزلته ليدافع عن حرّامات قومه، ففكّ الفرزدق قيده ليردّ على جرير والتحم الشاعران الكبيران واشتدّ الهجاء بينهما، وهو هجاء اشترك فيه حوالي ثمانين شاعرا وقفوا كلهم تقريبا مع الفرزدق ضد جرير وسقطوا أمامه ولم يثبت إلا الفرزدق.

ويذكر الرواة أسبابا شخصية لهذا الاصطدام، فيقولون أنّ الأخطل زار البصرة فأهداه بعض أقارب الفرزدق تحفا وهدايا كي يفضله على جرير، ومن الممكن أن يكون هذا صحيحا ولكن المسألة ترجع في أسبابها البعيدة- إلى ماكان من خصومات وحروب لأسباب اقتصادية في العصر الأموي (قيس وتغلب) فكان الأخطل يقود معارك هجائية عنيفة ضدّ قيس منذ اشتباكها مع قومه، وكان جرير في هذا الاثناء قد انحاز الى جانب قيس وتحول يدافع عنها امام الفرزدق، والمتعمق درس النقائض ودرس حوادث العصر وأشخاصه وظروفه يلاحظ أنّ هذا المزج بين عشيرتي الشعارين وبين قيس وتميم بدأ منذ بدأت هذه المعركة أو في وقت قريب من نشوئها، فقد تصادفا أنّ عبدالله بن خازم السلمي القيسي صاحب خراسان في عهد ابن الزبير أوقع بتميم سنة ٦٥هـ فنشبت الخصومة بين قيس وتميم منذ هذا التاريخ، وظلّت تذكيها الحوادث طوال عصر بني أمية، على أنّ هذا وحده لا يكفي لتشخيص الموقف، لأن النقائض التي بين يدينا لهما ليست هي كل نقائضهما وإنما هي بقايا ممّا قالاه².

¹ شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ١٧٥.

² المرجع نفسه ص ١٧٨.

وهناك نقيضة نظمها جرير في أول ولاية الحجاج على العراق سنة ٧٥هـ وتراه يعير الفرزدق بانتكاسه، إذ يراه يمدح الحجاج القيسي وولاته، وفي ذلك يقول له:

رأيت إذ لم يغنك الله بالغنى لجأت إلى قيسٍ وخذك ضارِعٌ¹

وهدأت هذه المعارك التيمية القيسية قليلا في عهد الحجاج ثم عادت إلى العنف والشدة بعد وفاته، وبعد حادث ثورة قبيبة بن مسلم الباهلي القيسي والي خرسان على سليمان بن عبد الملك وقتل وكيع ابن أبي سود التيمي له، واستمرت حتى لفظا انفاسهما الأخيرة، ظلّ الفرزدق وجرير هذه النقائض أو هذه الكرات من الشعر حقا متطاولا، ويتجمع أهل البصرة حولهما، ليروا إحسانهما وتفوقهما في هذه اللعبة من حين إلى حين، كان بعض الشعراء الأصغر حاول أخذ الكرة من جرير أو صاحب فما يلبث أن يسقط في الميدان، ويستمر اللاعبان الكبيران في نقائضهما وكل يحاول التفوق على منافسه ويظهر مقدرته الفنية، فقد بدأت المعركة اللسانية خصومة جادة ثم لم تلبث أن تتحولت إلى ما يشبه المناظرات التي يراد بها إمتاع السامعين وتسليتهم.²

أبعاد الشعر الهجائي النقائضي في العهد الأموي :

استفحال الهجاء السياسي:

كان الهجاء السياسي من أظهر فنون الشعر في العصر الأموي، فقد عرف معاوية وخلفاؤه ما للشعر من اثر في نفوس الناس، فحرصوا ان يجمعوا حولهم اكبر عد ممكن من الشعراء. وكان لهم في رسول الله اسوة حسنة بما فعل في تشجيع الشعر في سبيل نشر الدعوة وقرارها، ولازم هذه الحركات الاليفة والحروب المضطربة شعر كثير يؤيد الطامعين في الحكم ويهاجم خصومه واعداءهم، وبذلك عاد الشعر مرة ثانية للظهور بعد ان اختفى اثرهم وخفت صوتهم منذ وفاة النبي عليه الصلاة والسلام. عادوا يحتلّون من الحياة السياسية مكانا ممتازا، ويشرفون على توجيه الراي العام، بما يذيعون من شعر في تأييد أحزابهم ومعارضة أعدائهم ومنافسيهم، وحرص القادة و الزعماء والمطالبون بالملك عليهم فأصبح الشعر كما كان في الجاهلية نظير الرمح وقرينه وشطر عدّة المحارب وروح دعوته.³

¹ محمد عبد الله الصاوي، شرح ديوان الفرزدق، ص ٣٧٠.

² شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ١٨٤.

³ محمد محمد حسين، الهجاء والهجاؤون في الاسلام ص ١٧.

واعتمد الزعماء على الشعر في إعداد الناس لما يدبرون من مشاريع يمهدون لها بالشعر ليتحسسوا رأي الناس، ومدى استعدادهم لقبولها، كما فعل معاوية حين همّ أن يباع لابنه يزيد مستحدثا بذلك سنة ولاية العهد فأوعز إلى مسكين الدارمي أن يتكلم في ذلك فقال:

ألا لئيت شعري مايقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد
بني خلفاء الله مهلاً فإنمنا بيوتها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربيّ خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد¹

أولع الناس بالهجاء في هذا العصر حتى أصبح بدعا وصاروا يتهاجون لغير خصومة كلفا بالأجاج والمراء. فقد جاء البردخت إلى جرير فقال: تهاجيني؟ قال: ومن أنت؟ قال: أنا البردخت، قال وما البردخت؟ قال: الفارغ بالفارسية. قال جرير: ماكنت لأشغل نفسي بفراغك.²

ولا يكاد يعرف في هذا العصر شاعر مشهور إلا وقد أخذ من الهجاء بنصيب، يقول ابن قتيبة في أخبار ذي الرمة: وإنما وضعه عندهم أنه كان لايجيد المدح والهجاء.³

وقد اختلفت صور الهجاء السياسي في ذلك العصر وتعددت مذاهبه، فمضى بعضهم على الأسلوب الجاهلي الذي يقوم على العصبية القبلية، واتجه بعضه إلى مهاجمة أصحاب الدعوة والمحاربين في سبيل الملك، وإنكار حقهم في ذلك، وتتبع سقطاتهم والتشنيع بأفعالهم وهفواتهم، وانصبّ بعضه الآخر مهاجما سياستهم البعيدة على العدل والانصاف، وذهب فريق من الناس مذهب الساخط على كل هؤلاء الزعماء القرشيين الذين امتلأت نفوسهم بالطمع فجرّوا على الناس هذه الويلات التي لاتعود عليهم بغير الشرّ والفناء.⁴

وبشكل عام حاول الشعراء من خلال الهجاء السياسي تصوير الضيق الشديد بزعماء هذه الأمة، الذين قادوها إلى ماصارت إليه من التطاحن وسفك الدماء، فقد أيقضت هذه الأحداث المنتابعة عقول الناس وفتحت عيونهم على ماحولهم، وأخرجتهم من سذاجتهم، فلم يعودوا يحسنون الظنّ بقائد من قادتهم فكّلهم متاهلك على حطام الدنيا، لايدفعها الشجع والغرور، يقولون غير مايعملون، ويضلّلون الناس بما يظهرون من الورع والحرص على إقامة الدين وإعلاء شأنه، واتهام خصومهم بالمروق والتهاون في الأخذ بسننه، ملّ الناس هذا الرّياء، ولم يعد من السهل خداعهم بالخطط والوعود بعد أن أسرع هذه المعارك بالتفكير إلى النّضج ونبّهت ملكة النقد

¹ شوقي ضيف، تاريخ الادب العربي (العصر الاسلامي) ص ١٨٤.

² ابومحمد مسلم بن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء ص ٢٨١.

³ المرجع نفسه ص ٢١٠.

⁴ محمد محمد حسين، الهجاء والهجاءون في الاسلام ص ٣٤.

وفتحت بذلك باب الهجاء السياسي. "1"

تحول الهجاء عند الفرزدق وجريير إلى نقائص:

لقد كان اندلاع العصبية بين القبائل في عصر بني أمية سببا مباشرا في اشتعال الهجاء بين الشعراء، حتى ليوشك قارئ الشعر الأموي أن يظن أنه كان أهم موضوع يجذب إليه الشعراء، حيث نظرت كل قبيلة في نفسها وفي مكان بينها وبين غيرها قديما من أيام وحروب، واستحال ذلك كله شعرا، أو بعبارة أخرى استحال هجاء، فكل شاعر لقبيلة يحاول جاهدا أن يرمي القبيلة القديمة التي تصادف أن نافست قبيلته في الجاهلية بسهم من سهام الهجاء، وبالاحرى بحجر من حجارة القذف، ويستشيط شاعر القبيلة المعادية، فنراه يبحث هو الآخر عن سهم مصل أو حجر مدم ليرد كيد صاحبه. "2"

والملاحظ في كل هذه الصور من لهجاء التي سبقت عصر بني أمية انها كانت في أكثرها صورا بسيطة، فالشعراء لا يتقيدون دائما بن يردوا على خصومهم بقصائد من نفس الوزن والقافية أو بعبارة أخرى من نفس الالحن والنغمات التي صاغ فيها الخصوم شعرهم وهجاءهم. غير أن هذا الهجاء المتبادل لم ينظم ولم تعط الحياة الفرصة لتنظيمه، إذ كانت القبائل متباعدة، وخاصة هذه التي تتقاتل، وكان الشعراء لذلك تنتظم بينهم هذه الحرب اللسانية، ومن هنا لا يعثر بهذا اللون من الشعر إلا قليلا، وعقب الأيام و الحروب فورا كل يوم نجد قطعا متبادلة بين الفئتين المتقاتلتين ثم تُزَمّ الألسنة كما تُزَمّ السيوف، كأن شيئا لم يحدث. فقد هدأت ريح الحرب وهدأت معها العواصف اللسانية.

معنى ذلك أن العرب قبل عصر بني أمية لم يعرفوا هجاء منظما يستمر يوميا استمرارا متصلا بل كان يظهر من حين إلى حين، تبعا لنشوب حروب وأيام بينهم. "3"

وهذا أهم فرق بين الهجاء في القديم وفي الحديث أو في العصر الجاهلي و العصر الأموي، فالشاعر الجاهلي لم يكن يهجو ليضحك جمهورا، وليقطع له أوقات فراغه ولم يكن يهجو أمام خصومه مباشرة ولم يحترف الهجاء على النحو الذي نجده في بني أمية. وخير مثل يصور ذلك كما نجده عند جريير والفرزدق، فإن الهجاء تحول عندهما إلى حرفة خاصة، وليس عندنا قبل هذين الشاعرين دواوين للهجاء بهذا المعنى الذي نجد عندهم، من أجل ذلك زعم أن الهجاء

"1" محمد محمد حسين، الهجاء والهجاءون في الإسلام ص ٤٠.

"2" شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ١٦٢.

"3" سراج الدين محمد، الهجاء في الشعر العربي ص ٢٦.

تحوّل عندهما إلى فنّ جديد أو إلى لون جديد يسمى (النقائض).¹

أمّا الهجاء الذي سبقهم لا يسمى نقائض إلا على ضرب من التجوّز، أو على أنّه كان بذورا لهذا الفن الجديد الذي يقرأ عند الفرزدق وجرير وليس هذا كل ما يلاحظ في هجائهم بالقياس إلى الهجاء القديم، لأنه خرج من المعاني الأولية البسيطة إلى معان معقّدة عقّدتها الظروف السياسية المعاصرة، كما عقّدتها الظروف العقلية والدينية الجديدة، حيث أصبحت النقائض كأنّها مناظرات أدبية.²

ويمكن ملاحظة هذا التطور في نقائض جرير الأولى مع غسان و البعيث فهي في أكثرها أراجيز و مقطوعات، ثم هي ضحلة المعاني، فليس فيها عمق وليس فيها تعقيد، وليس فيها الأيام الكثيرة التي وجدت فيما بعد عند جرير، وليس فيها اتصال بظروف الحياة السياسية الجديدة، ولا بالظروف الدينية و العقلية، إنّما فيها القرب والبساطة، وهي في ذلك تشبه الأهاجي القديمة. فإذا تقدمنا بعد ذلك وجدنا جريرا يسوق نقائض من طراز جديد، فيها دفاع عن قيس وفيها اتصال عميق بماضي القبائل العربية وأمجادها، وليس ذلك فحسب، بل أيضا فيها تعبير الشعر عن كل ما حصل عليه العرب حينئذ من ذخائر عقلية وروحية.³

¹ "شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ص ٤٢.

² "المرجع نفسه ص ٤٣.

³ "شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ١٦٦.

الفصل الثالث :- الخصائص الفنية لشعر النقائض:-

المبحث ٠١ : قصيدة الفـرزذق:

- تقديم أبيات من القصيدة
- مضمون الأبيات وشرح مفرداتها
- تحليل الصور الفنية
- تحليل اللغة الهجائية
- تحليل الأبنية الإيقاعية

المبحث ٠٢ : قصيدة جرير النقيضة:

- تقديم أبيات من القصيدة
- مضمون الأبيات وشرح مفرداتها
- تحليل الصور الفنية
- تحليل اللغة الهجائية
- تحليل الأبنية الإيقاعية

* دراسة مقارنة لشاعري النقائض

* بين الفرزذق وجرير

قصيدة الفـرزق :

(أ) تقديم أبيات من القصيدة :

إنّ الذي سمك السماء بنى لنا
بيئاً بناه لنا المليك وما بنى
بيئاً زرارة مُحْتَبٍ بفنائِه
يلجون بيت مجاشع وإذا احتبوا
لايحتبي بفناء بيتك مـثـلـهـم
من عزهم جحرت كُليب بيئها
ضربت عليك العنكبوت بنسجها
يمشون في حلق الحديد كما مشت
والمانعون إذا النساء ترادفت
يحمي إذا اخترط السيوف نساءنا
وإذا بذخت ورايتي يمشي بها
إن الزحام لغيركم فتحينوا
أحلامنا تزن الجبال رزانة
فادفع بكفك إن أردت بناءنا

بيئاً دعائمه أعزّ وأطـوّل
حكّم السماء فإنه لاينقل
ومُجاشع وأبو الفوارس نهشل
برزوا كأنهم الجبال المثل
أبدا إذا عدّ الفعال الأفضل
زربا كأنهم لديه القمّل
وقضى عليك به الكتاب المنزل
درب الجمال بها الكحيل المشعل
حذر السبأ جمالها لا ترحل
ضربا تخرّ له سواعد أرعل
سفيان أو عدسُ الفعالِ و جندل
ورد العشي إليه يخلو المنهل
وتخالنا جناً إذا مانجهم
تهلان ذو الهضبات هل يتحلل؟^١

^١ أبو عبيدة معمر بن المثنى، شرح النقائض (نقائض جرير والفرزق) ص ١٣٤.

وهي من أشهر قصائد الفرزدق ومن أشهر نقائضه، ولا يعرف سبب لنظمها أو تاريخ النظم، وإنما هي حلقة من حلقات الصراع بين الشاعر وجرير فيما عُرف في الشعر العربي بالنقائض، ورغم أنها ذكرت في الكثير من كتب الأدب و الشعر إلا أنه لم يذكر سبب النظم. فلقد ذكرها على سبيل المثال المبرّد في كتابه (الكامل في اللغة والأدب) ، وابن رشيق في (العمدة) ، وغيرهما... وكل هؤلاء لم يثيروا إلى سبب النظم .¹

ولقد جاءت هذه القصيدة في ديوان الشاعر في ٧٧ بيت، لكنها في كتاب (شرح نقائض جرير والفرزدق) جاءت في ١٠٤ بيت، ولا يعلم سبب ظاهر اللهم إلا ما يلاحظ على الأبيات الغائبة في الديوان، المثبتة في (شرح النقائض) لأنها فاحشة اللفظ نابية الكلمات، تنبو من ألفاظها الأسماع فقد يكمن السبب في ذلك.

(ب) مضمون الأبيات وشرح مفرداتها :

قامت القصيدة – كغيرها من قصائد النقائض – على غرضين شعريتها الهجاء والفخر، فلقد بدأ الشاعر قصيدته بغرض الفخر، وهو فخر جماعي بالقبيلة والعشيرة، وليس فخرا ذاتيا فرديا. فلقد افتخر الفرزدق بعلو قبيلته وبعزّها ومنعتها، وشجاعة رجالها وكرمهم بأسهم في المعارك ، ما أصبغ على فخره هذا بعدا دينيا عندما اعتبر أنّ بيت عزّم بناه الله تعالى، ولا أحد من البشر، لذلك فهو باق لا يزول ولا يحول يقول :

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا
بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ
بَيْتًا بَنَاهُ لَنَا الْمَلِيكُ وَمَا بَنَى
حَكْمُ السَّمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يُنْقَلُ

يتحدث الشاعر في مستهلّ قصيدته بالضمير الجمعي، ناطقا باسم القبيلة مفتخرا بحقيقة عزّها، الذي هو كالبيت لكنه بيت بناه وسمكه الله عز وجل لذا هو بيت أعزّ حقا، أطول باعا، وأمدّ عمرا، ويعقب الشاعر على نفسه في ردّ خفيّ على جرير أنّ ما بناه الله لا سبيل إلى نقله فما بالكم إلى هدمه. ولقد اختار الشاعر من البداية هذه الاستراتيجية الحجاجية، فاعتمد على المقدّس لتقوية فخره.²

¹ أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد احمد الدالي، مؤسسة الرسالة للطبع والنشر، لبنان ط٣

١٩١٧ م ص ٢٣٦.

² أبو عبيدة معمر بن المثنى، شرح النقائض (نقائض جرير والفرزدق) ص ١٣٤.

انتقل الشاعر من الفخر القبيلة عامة إلى ذكر الأجداد تخصيصا ، فافتخر بزُرارة ومجاشع و نهشل:

بَيْتَا زُرارة مُحْتَبٍ بِفَنَاءٍ بِهـ وَمُجاشِعِ وَأَبُو الفوارِسِ نَهْشَلُ
يَلْجُونَ بَيْتِ مُجاشِعٍ وَإِذَا اخْتَبَوْا بَرَزُوا كَأَنَّهُمُ الْجِبَالُ الْمُثَلُّ

وهنا يلاحظ تسلسل الخطاب الفخري عند الفرزدق في بعده الحجاجي، فلقد بدأ الشاعر قصيدته بإعلان عن مسألته وتأكيد قضيته مخبرا مناظره جريرا عن رفعة مكانته وثبات عزمه وكرمه، مسندا إلى الله تعالى صفة البناء، فهو حاكم الأرض والسماء وما بناه لا ناقل له.¹¹

وانطلاقا من هذه الخلفية التي حاول الفرزدق بها التأسيس لها بأقوى الحجج ، وهي أنّ قوم الفرزدق لديهم من المجد و العزّ مالا سبيل إلى نقضه، إنتقل إلى التعريض بجريير، فيقول أنّ مثل هذه الأماجد الأفاضل لا يملك مثلهم جريير، فهم أهل أنفة وشجاعة وعزّ، وكان جرييرا ورهطه لا عزّ لهم ولا أنفة ولا كرم أو مجد:

لَا يَحْتَبِي بِفَنَاءِ بَيْتِكَ مِثْلَهُمْ أَبدا إِذَا عُدَّ الْفِعَالُ الْأَفْضَلُ

ثم سرعان مايقفل راجعا، عاطفا كلامه على الكلام السابق، مؤكدا إياه حول ما أسلف به عن رجال قومه:

يَمْشُونَ فِي حَلْقِ الْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ دَرَبَ الْجِمالِ بِهَا الْكُحَيْلُ الْمَشْعَلُ
وَالْمَانِعُونَ إِذَا النَّساءُ تَرادَفَت حَذَرَ السَّبَّاءِ جِمالِها لا تَرَحَلُ
يَحْمِي إِذَا اخْتَرَطَ السِّيَوفُ نِساءَنا ضَرْبا تَخَرَّ لَهُ سِواعِدُ أَرَعَلُ

فهنا وصف لحالهم اثناء الاستعداد للمعارك فهم في الحديد الثقيل، من دروع وسيوف وغيرها وهم اهل انفة وغيره على المحارم ونساء القبيلة. انهم الحماة البواسل، ثم يواصل تعداد وذكر ابطال قومه:

وَإِذَا بَذَخْتُ وَرأيتي يَمْشي بِها سَفِيانُ أَوْ عُدُسُ الْفِعَالِ وَجَنْدَلُ

¹¹ الحجاج في شعر النقائض (دراسة تداولية) مذكورة لنيل شهادة الماجستير، تحليل خطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو ص ٤٦.

فهؤلاء الأبطال يفخر بهم الشاعر لأنهم يحملون لواءه وهم : سفيان وعدس وجندل، والسر الكامن وراء تعدد الفرزدق لأسماء قومه من الأجداد والشجعان وإحاحه في ذلك، هو أن جريرا يفتقر لمثل هؤلاء نظرا لتواضعه، فهو يعمد إلى استخدام نعوت هائلة، فليصقها بهم إصاقا حتى تصبح لديه لازمة يكررها متى ذكرهم.¹

وبما ان النقائض تقوم على غرضي الهجاء وفخر معا وتأسس عليهما، ولاتقوم الا بهما، نجد الهجاء حاضرا بقوة في قصيدة الفرزدق، تاليا لغرض الفخر الذي طغى على القصيدة، ثم ممتزجا به لاحقا كما سنرى، ولقد استهل هجمة الهجاء تلك بقوله:

ضربت عليك العنكبوت بنسجها — وقضى عليك به كتاب المنزل

فهنا يوظف المعاني الدينية، مستحضرا قيم الدين الاسلامي، مقتبسا بعضا من الفاظ القرآن الكريم، مستوحيا مفرداتها من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت ٤١)

فالعنكبوت ضربت على جرير بنسجها وبنت عليه، وما تبنيه العنكبوت — حسب الفرزدق — واهن ضعيف، وبذلك شهد واقر الله في محكم تنزيله، ومنه فلا شأن لجرير ولا قيمة له امام الفرزدق في حسن حاله ووفرة ماله.²

ويختلط الغرضان الشعريان في القصيدة، فيتناوبان الحضور والغياب، ويمتزجان ولكن رغم ذلك الهجاء في بداية القصيدة أو وسطها قليلا، ويزداد ويقوى في نهايتها، ومن أبيات الهجاء اللافئة للنظر قول الفرزدق:

إن الزحام لغيركم فتحيتوا — ورد العشي إليه يخلو المنهل

وتكمن أهمية هذا البيت في أن الشاعر استحضر المشترك الاجتماعي ذو الطبيعة القبلية، قبل الاسلامية، فهو بيت ينطق بقيمة جاهلية طالما ردها الشعراء قبله، من مثل قول عمرو بن كلثوم أحد شعراء المعلقات :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا³

¹ "انور حميدو علي فيشوان، محاضرة في فن السخرية في شعر جرير، كلية المعلمين لمحافظة جدة، جامعة الملك عبد العزيز.

² "احمد حسن الزيات تاريخ الادب العربي ص ١٦٧.

³ "ابو عبيدالله الحسين بن احمد الزوزي، شرح العلقات، لجنة التحقيق في الدار العالمية، بيروت/١٩٩٢ م ص١٢٦.

وهو بيت فيه كل معاني الجاهلية وقيمها، ويبدو أنّ تلك القيم عاودت الرجوع في العصر الأموي على الأقل شعرا، وإذا أكملنا قراءة القصيدة وخصوصا تلك الأبيات التي تجاهلها بعض المحققين والشراح من كلام خارج عن كل الأذواق والآداب، نفهم تلك المقولة النقدية المعروفة في عالم النقد: ((النقائض نعمة على الأدب نقمة على الأخلاق))

(ج) تحليل الصور الفنية:

شعر النقائض شعر اجتماعي المنزع، له أهداف اجتماعية مباشرة، يبتغي التأثير النفسي و الفكري والسلوكي في المتلقي، وتحقيق أهداف مادية واقعية من الانتصار لهذا الطرف والاصطفاف إلى جانبه، ونبذ الآخر، تهدف النقائض إلى السّجال بل الصراع الفني على من فاز ومن انهزم. وبما أنّ العامّة هم الحكم في هذا السجال والصراع الشعري، فإنّما نستنتج أنّ الشعر القريب من أفهامهم وأذواقهم صاحبه هو الفائز عندهم، وبهذا يعلل النقاد نجاح وشهرة جرير عند العامّة، واحتفائهم به وجعله الفائز على حساب الفرزدق الذي يحتفي به أهل العلم بالشعر، والنحاة وعلماء اللغة.¹

من هذا كله فإنّ نصيب الخيال سيكون بقدر معلوم، فقط بالقدر الذي يلبي هذا الاحتياج، فالموقف ليس موقف الصنعة والتفنّن وإظهار البراعة الشعرية، وما تجود به القرائح، والمجال لا يتسع للخيال بقدر ما يتطلب الواقع الملصق بتفاصيل وقيم هذا المجتمع، هذا مانراه في هذه القصيدة، فقد الخيال بها قليل إلى حدّ ما، وقد غلب عليها التشبيه الذي هو أبسط أنواع المجاز، والذي لانلمس فيه انزياحا كبيرا، فالتشبيه قريب من معاني الحقيقة ومردّد هذا إلى ما أسلفنا به من أنّ شاعر النقائض يؤدي العورات بألفاظها الحقيقية دون احتشام بل يختار من أسمائها أدلّها على الفحش وأقربها إلى الإبتذال.²

لقد شكّل التشبيه غالبية الصور البيانية في هذه القصيدة، وهو تشبيه حسي مادي قريب من مخيلة السامع لا يكاد يخلق كثيرا في فضاء الخيال، وّغلب التشبيهات جاءت في سياق حجاجي واضح، هدفها الإقناع والتأثير في الخصم وهذا هو الهدف الأساسي والأول للقصيدة بل لكل شعر النقائض على اختلاف وتنوّع شعرائه. ويجب الإشارة أنّ جُلّ التشبيهات الواردة في القصيدة هي تشبيهات مجمّلة، هذا ما يجعلنا نفترض أنّ هذا الخطاب له بعد تواصلية وبعد حجاجي.³

¹ خالد محمود عزّام، جرير شاعر النقائض الأموية والنزعة الدينية ص ٢٠٧.

² أحمد الشايب، تاريخ النقائض في الشعر العربي ص ٤١٦.

³ الحجاج في شعر النقائض (دراسة تداولية).

وفي هذا دلالة اخرى على توجه معاني القصيدة جهة واقية، فالإيقاع على اداة التشبيه تأكيد على الانفصال بين عالمي الواقع و الخيال لذا كان لاسلوب التشبيه دور مهم في بناء نقيضة الفرزدق.¹ قال الفرزدق عن الأبطال في قومه:

يَلْجُونَ بَيْتَ مُجَاشِعٍ وَإِذَا احْتَبُوا
بَرَزُوا كَأَنَّهُمُ الْجِبَالُ الْمُثَلُّ

فهو يشبه هؤلاء الأبطال بالجبال المائلة الراسية المقيمة التي لاتبرح ولا ترحل، ثباتا وعزما، وهو تشبيه غرضه التأثير في السامع لتنعرس في ذهنه فكرة بطولة هؤلاء من قوم الفرزدق، وبالتالي أن يحكم على هذا الشاعر بالمجد والرفعة، والتفوق على خصمه جرير، كما أن التشبيه به قيم إيجابية وهناك تشبيهات ذات قيم سلبية، من مثل قول الشاعر:

مَنْ عَزَّاهُمْ جَحْرَتْ كَلَيْبَ بَيْتَهُهَا
زَرْبًا كَأَنَّهُمْ لَدَيْهِ الْقُمَّلُ

أي أن من بطش أولئك الأبطال يجعلون كليب تفرّ للجحور لتكون بمثابة البيت لها، وبذلك غدوا كأنهم مثل القمل. وهو وصف موغل في التحقير والسلبية، ليحقق به قيمة ايجابية هي البطولة والقوة والبطش، تميز بطابعه المادي الحسي القريب من ذات المتلقي الذي أشرنا إليه وحددنا ملامحه، أما قول الشاعر:

أَحْلَامُنَا تَزُرُّ الْجِبَالَ رَزَانَةً
وَتَخَالُنَا جِنًّا إِذَا مَآجَهَ لُ

فإستعارة مكنية، وهي من الإستعارات القليلة في القصيدة، ولعلّ قلة الاستعارة إذا قيس بالتشبيهات، دليل آخر على التوجّه الواقعي الغائي لمعاني الشاعر، ومحاولته البقاء ما أمكن في فضاء ذلك الواقع، واقع الصراع القبلي. لذا تظهر صور الحجاج من خلال الاستعارة والتشبيه، فبعدما ظهر ما يسمى بالبلاغة الجديدة تحوّل النظر إليها من مجرد وسائل تزيينية إلى كونها آليات حجاجية.²

في هذه الإستعارة يفخر بعنصر آخر، بعد افتخاره بقيم جاهلية، وأخرى إسلامية، يفخر بعنصر إنساني جامع، وهو رجاغة العقل ورزانتة، رغم أنه ختم البيت بما يناقض ذلك، ولكن الاستعارة تتضمن هذا المعنى العام المشترك، الذي هو محل توافق من الجميع، ومرة أخرى فإنّ الجانب المادي الحسي القريب من أذواق وأفهام العامة حاضر، فرجاغة وثقل عقول قومه يفوق الجبال.³

¹ عبدالواحد اسكندر، نقائض جرير والفرزدق في ظل الاسلوبية المقارنة، مجلة ذي قار، كلية الاداب، العدد 1\مجلد 4\ 2008 ص 10.

² الحجاج في شعر النقائض ص 124.

³ حنّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، ص 485.

(د) تحليل اللغة الهجائية:

إنّ تعدد القيم في هذا الخطاب الشعري وتناقضها أحيانا، جعل لغة القصيدة متنوّعة، متعددة بتعدد تلك القيم وبتعدد مواقف الشاعر أيضا. وقد تميّزت لغة الهجاء في هذا الخطاب السّجالي بأنها مثّلت فعلا القيم التي انطلق منها الشاعر، وعبر من خلالها، وسعى لمخاطبتها فعندما قال الفرزدق:

إنّ الزّحام لغيركم فتحينّوا ——— ورد العشيّ إليه يخلو المنهل

إنّما هي قيم عربية جاهلية ناطقة، نلمس فيها نبرة التحقير والتقليل من الشأن، إذ لا شأن وفق هذه القيمة إلا للقويّ الذي يفرض حضوره عند ورد الماء فيشرب هو وينتظر الباقي الأضعف شأنًا، ويتردد هذا البيت مع بيت عمرو بن كلثوم أنفًا، ولهجة التحقير و الحطّ من الشأن نفسها نراها في قوله:

لايحتبي بفناء بيتك مثلهم ——— أبدا إذا عدّ الفِعال الأفضل

ونرى معنا مشابها له في البيت التالي :

فادفع بكفك إن أردت بناءنا ——— ثهلان ذو الهضبات هل يتحلل؟

إنه بيت ناطق بضعف جرير ورهطه، وقلة حيلتهم، فلا جال لهم أن حركوا جبل ثهلان، جبل عزّ وقوة قبيلة الفرزدق. فالشاعر يضعنا أمّا قوتين مختلفتين تماما، أقصى القوّة ممثلة في قبيلته ومنتهى الضعف في جرير وقبيلته. ¹¹

وتتواصل تلك اللهجة التحقيرية، التي ترى القوة في نفسها والضعف في الخصم، تلك اللهجة المجسدة لقيم بدوية بائدة، لاتعترف إلا بالأصل والآباء والأجداد، وتتنازب بالألقاب وتعير بالأنساب، في مثل قول الشاعر:

يا ابن المُرَاغَةِ أين خالك إنني ——— خالي حُبَيْشٌ ذو الفِعال الأفضل

ففي هذا البيت تجريح لجرير بذكر أمّه وخاله، وكلاهما متواضع النسب والأصل، وإنّ مجرد ذكر الأم في عرف العرب خصوصا في سياق الهجاء هذا يعدّ مسبة للعربي أبد الدهر، فما بالك إذا زاد الأمر عن حد الآداب والدين، ولايتوقف الفرزدق بذئ اللسان عن هذا الحد، بل يكرر اسم أم جرير (المراغة) مرة أخرى وفي سياق القدح و الذم :

وابن المُرَاغَةِ يدّعي من دارم ——— والعبد غير أبيه قد يتنحل

¹¹ ابو عبيدة معمر بن المثنى، شرح النقائض (نقائض جرير والفرزدق) ص 138.

وسيكرده عشرات المرات في شعره (حوالي ٧٧ مرة في ديوانه) وفي كلامه العادي كلما تعلق الأمر بجريير. وفوق كل ذلك نجد في هذا البيت ما هو أسوأ، وهو ادعاء جريير نسبه دارم، محوِّلاً نسبه عن أبيه، وهذا في عُرف العرب _آنذاك وحتى اليوم_ يجعل الرجل مرذولاً، وفي الدّرك الأسفل من سُلم المجتمع، لقيطاً منبوذاً.¹

وهكذا تتواصل لغة الشاعر الهجائية، ماضية غير مراعية لخلق أو عرف أودين، فلقد تخلّى الشاعر عن كل هذه الضوابط ومضى غير مبال بها ، لاغاية له إلا النصر في معركة وميدان لامجد فيه أو رفعة، والملاحظ من خلال القاموس اللغوي الذي استخدمه الشاعر هو دوران اللغة الهجائية في فلك الذم والقدح والمعايرة، وهي لا تكاد تحيد عن هذا الحقل الذي تنتمي إليه كلّ مفردات الهجاء والتحقير والاذلال والتقليل لا من الشأن وهي بلا شك كلمات نابية تأثر في نفسية المهجو وتحطّ من قدره.

(هـ) تحليل الابنية الايقاعية :

إنّ دراسة الجوانب الايقاعية في العمل الشعري ذو الطبيعة التخيلية، دراسة تساهم في إثراء ذلك العمل والكشف عن جوانبه الفنية، وتسمح الوقوف على مواطن الجمال والتأثير فيه، وتعدّد مستويات الايقاع التي يجب دراستها، فهناك الجانب المادي الذي ألف الدارسون بحثه، وفيه جانبان: جانب أو مستوى عروضي يوظّف الموسيقى الخارجية، كما له مستوى آخر في بنية الألفاظ ذاتها، وهو الموسيقى الداخلية الناتجة عن تألف الحروف وانسجامها الصوتي.²

لقد بنيت القصيدة على بحر الكامل وتفعيلاته:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن

وبحر الكامل من البحور أحادية التفعيلة، وهو يصلح لشعر التفعيلة أو الشعر الحر، وعلى صعيد المعاني فهو له من الطاقة الصوتية ما يمكنه أن يعبر به عن العديد من الموضوعات والمعاني والكثير من الأحاسيس، لذلك هو من البحور الأكثر استخداماً بين الشعراء نظراً لقدرة على استيعاب التجارب الشعورية والشعرية كذلك. وربما هذه الخاصية أهّلته أن يكون بحراً تنظم فيه قصائد و أشعار النقائض، فالنقائض تجتمع فيها أحياناً ثلاثة أغراض شعرية هي الغزل و الفخر والهجاء ويبدو أنّ البحر الأنسب لاستيعاب كلّ هذا للطف الشعري وهذه الأغراض المتناثرة هو بحر (الكامل).³

¹ عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي ج ١ (من مطلع الجاهلية الى سقوط الدولة الاموية)، ص ٦٥٩.

² عبدالرحمان الوجي، الايقاع في الشعر العربي، دار الحصاد، دمشق، ط ١٩٨٩\١ م ص ٨٠.

³ عبد الباسط عبد الخالق محمود، الغزل في شعر بشار بن برد (دراسة اسلوبية)، دار طيبة، مصر ط ٢٠٠٥\١ م ص ٥٣.

وبالرجوع للجانب العروضي، فبحر الكامل يأتي تامًا:

متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن

ويأتي مجزوءًا:

متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن

ونظمت هذه القصيدة على تام الكامل :

متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن¹

ولنأخذ البيت الاول من القصيدة :

بيتا دعائمه أعز وأطول

ان الذي سمك السماء بنى لنا

بيتين دعا ئمه و أعز زوأطول و

إن ن للذي سمك سسما ءبنى لنا

٠١١٠١٠١ ٠١١٠١١١ ٠١١٠١١١

٠١١٠١٠١ ٠١١٠١١١ ٠١١٠١١١

مُتفاعِلن مُتفاعِلن مُتفاعِلن

مُتفاعِلن مُتفاعِلن مُتفاعِلن

فاتفعيلة الاولى من صدر البيت من البحر تحولت من مُتفاعِلن الى مُتفاعِلن وبقيت باقي التفعيلا على الحالة الاصلية لها. ²

في حين ان في البيت:

وقضى عليك به كتاب المنزل

ضربت عليك العنكبوت بنسجها

وقضى علي ك بهالكتا ب لمنزلو

ضربت علي ك لعنكبو ت بنسجها

٠١١٠١٠١ ٠١١٠١١١ ٠١١٠١١١

٠١١٠١١١ ٠١١٠١٠١ ٠١١٠١١١

تبدلت التفعيلة الثانية من صدر البيت من مُتفاعِلن الى مُتفاعِلن، وسلمت بقية التفعيلات من التغيير في حين أن التفعيلة الاخيرة من عجز هذا البيت تغيرت من مُتفاعِلن الى مُتفاعِلن. ومنها يتضح أن الكامل في هذه القصيدة جاء بصورة تامة، إذ أن عروضه صحيح وضربه صحيح كذلك.

¹ "ابو الفتح عثمان بن جني، كتاب العروض، تحقيق أحمد فوزي الهيب، دار القلم، الكويت ط ١٩٨٩\٢ م ص ٩٠

² "المرجع نفسه ص ٩٦.

قصيدة جرير النقيضة:

(أ) من قصيدة جرير النقيضة :

لِمَنِ الدِّيَارُ كَانَهَا لَمْ تُحْلَلِ
ولقد أرى بك والجديد إلى بلى
نظرت إليك بمثل عيني مغزل
ولقد ذكرتكَ والمطي خواضِعُ
أعددتُ للشعراء سُما نَاقِعًا
لما وضعتُ على الفرزدق ميسمي
أخزى الذي سمك السماء مُجاشِعا
بيتنا يحممُ قينكم بفنائِه
ولقد بنيتُ أحسنَ بيتٍ يبتئى
ودعِ البراجمِ إن شربك فيهم
إنِّي أنصبتُ من السماء عليكم
أزرى بحلمكم الفياش فأنتمُ
بين الكناسِ وبين طلحِ الأعزلِ
موتُ الهوى وشفاء عَيْنِ المجتلى
قطعت حبالها بأعلى يلى
وكأنهن قَطَا فَلَاةَ مَجْهَلِ
فسقيتُ آخرهم بكأسِ الأولِ
وضعا البعيتِ جدعتُ أنفِ الأخطلِ
وبنى بناءك في الحضيضِ الأسفلِ
دنسا مقاعده خبيثُ المدخلِ
فهدمتُ بيتكم بمثلي يذبُلى
مرُّ مذاقه كطعمِ الحنظلِ
حتى اختطفتك يا فرزدق من علِ
مثل الفراش غشيين نارِ المصطفى^١

^١ "أبو عبيدة معمر بن المثنى، شرح النقائض (نقائض جرير والفرزدق) ص ١٥٥.

هي القصيدة التي ردّ بها جرير على قصيدة الفرزدق المدروسة سابقا، أي هي القصيدة النقيضة لها. وهي قصيدة تقع في ٥١ بيت في الديوان، في حين أنّ عدد أبياتها في مؤلّف (شرح نقائض جرير و الفرزدق) ٦٢ بيت، ولعلّ السر في هذا التفاوت في عدد الأبيات هو نفسه الذي أشرنا إليه سابقا في قصيدة الفرزدق، وهو بذاءة اللفظ وخروجه عن الآداب والأخلاق .

ومناسبة هذه القصيدة هو الرد على الفرزدق، وعلى وجه التحديد نقض معانيه الواردة في قصيدته، ومعنى النقض كما في لسان العرب في مادة(نقض):الابطال و الافساد. "١"

أي أنّ جريرا هو الآن بصدد إبطال معاني الفرزدق السابقة الواردة في قصيدته وإفسادها عليه، كي لا يصل إلى غايته. وكي تكون العملية محكمة ناجعة عادلة في نظر السامع و المتلقّي، عليه أن يتبع نهجا متفقا عليه و آلية سار عليها شعر النقائض، وهو أن الرد يكون على معاني تلك القصيدة المراد نقضها، بتتبع معانيها الجزئية و الكلية ، وطبعا البقاء في الأغراض الشعرية نفسها، بل أن ينظم الشاعر قصيدته النقيضة تلك على نفس البحر و الروي. وهذا الذي نراه في قصيدة جرير، من تتبع المعاني الجزئية لقصيدة الفرزدق و محاولة نقض معانيها جزء فجزء، طبعا هذا من أجل الفوز في هذا الصراع الشعري، وعدم ضعفه و لمقدرته على الرد على كل ما ورد في القصيدة السابقة، ثم صوغ قصيدته من البحر نفسه أي الكامل. وعلى حرف الروي نفسه (اللام). "٢"

و قصيدة جرير النقيضة تتميز عن قصيدة الفرزدق بمقدمتها الغزلية، و بمطلعها الطللي، الذي شغل منها الأبيات العشر الأولى. وهذا شاهد على اشتغال شعر النقائض على غرض الغزل، ولكنه غزل يدخل في باب العادة الفنية العربية، فيما يعرف: (بالمقدّمة الطللية) التي تعودّها الشعراء العرب منذ العهد الجاهلي أن يستفتحوا بها قصائدهم، و ذلك لما لها من استمالة لقلب ووجدان السامع لكلامهم. "٣"

"١" أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور، لسان العرب، المجلد٧، دار صادر، بيروت ، ط١٩٩٤\٣م ص٢٤٢.

"٢" عبد الواحد زيارة اسكندر، نقائض جرير في ضوء منهج الاسلوبية المقارنة ص ٥.

"٣" سعد إسماعيل شلبي، الأصول الفنية للشعر الجاهلي، مكتبة غريب الفجالة ، القاهرة ط١٩٨٢\٢م ص١٣٣.

(ب) مضمون الأبيات وشرح مفرداتها :

قامت النقيضة جرير على أغراض ثلاث هي الغزل، و الفخر، و الهجاء، ولأنّ تساوq الهجاء و الفخر فيها شكلا وحدة معنوية ودلالية، وخدم كل منهما الآخر، وأديا في النهاية غاية واحدة، هي الاعلاء من شأن الشعر و الحطّ من قدر الخصم، فإنّ غرض الغزل جاء منبتا منقطعا عن سياق القصيدة، ولم يختلف غزل جرير هنا عن الغزل المألوف في العهد الأموي أو الجاهلي، سواء في معانيه أو أساليبه أو عواطفه المبتوثة و مشاعره المعلنة، بل هو مكرور معاد فيبتدئ بقوله :

لَمِنَ الدِّيَارِ كَانَتْهَا لَمْ تُحْـلَلْ بَيْنَ الكُنَاسِ وَبَيْنَ طَلْحِ الأَعْزَلِ

وهو مطلع يشبه الكثير من مطالع القصائد السابقة عنه ، عند العديد من شعراء ، في العهد الجاهلي أو الاسلام (الأموي) ، وذلك بذكر الديار الخالية الفقر ، وقد دَرَسَتْ معالمها ، وامّحت رسومها، لذا يجيئ السؤال حولها من طرف الشاعر : لِمِنَ الدِّيَارِ ؟ مبرر مفهومها ، ولكنه سؤال بغرض بلاغي هدفه التحصّر على حالها ، في محاولة أولى من الشاعر إدخال السامع في أجواء الحزن والعواطف الملتاعة . إذ أنّ خلوّ الديار بعد عمارها ، وهجر الناس لها من دواعي الحزن والحسرة، وكعادة الشاعر العربي منذ الجاهلية نراه يحدّد مكان تلك الديار فهي بين مكانين آخرين هما الكُناس الأَعزَل .¹

ثم يردف بيته الأول بالبيت الثاني :

وَلَقَدْ أَرَى بِكَ وَالجَّـدِيدُ إِلَى بِلَى مَوْتُ الهَوَى وَشِفَاءُ عَيْنِ المُجْتَلَى

الذي يخاطب فيه تلك الديار، بأنه كان مع محبوبته مجتمعين فيها ولكن هواها ميت، وكأنه يقول

- ضمنيا- أنّ في الافتراق تحديد لذلك الهوى بالتذكّر والحزن.²

ولاتكاد تختلف بقية أبيات المقدمة الطللية هذه عن ما عرف عند العرب في مثل هذه المواقف من معاني، فمثلا من معاني، إنّ محبوبته عيناها عينيّ غزال يقول :

نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِمَثَلِ عَيْنِي مَغْزَلِ قَطَعْتُ حِبَالَهَا بِأَعْلَى يَلِيْلِ

¹ ابو عبيدة معمر بن المثنى، شرح النقااض (نقااض جرير والفرزق) ص ١٥٥.

² المرجع نفسه ص ١٥٦.

عند انتهاء الشاعر من ذكر الأطلال ووصف وتذكّر محبوبته يفسح المجال للفخر، الذي يستهله
ببيته السائر:

أَعْدَدْتُ لِلشُّعْرَاءِ سُمًّا نَاقِعًا فَسَقَيْتُ آخِرَهُمْ بِكَأْسِ الأَوَّلِ

وهو فخر بالشاعرية والتمكّن من ناصية الشعر، بغزارة نظم القريض، فشعر الشاعر - حسب البيت- سمّ زعاف، ناقع مميت، وقد انتهى من كل خصومه من الشعراء بكأس السّم الأول، والتدير في الكلام أنه مازالت هناك كؤوس وكؤوس لديه لمثل هؤلاء. وبسرعة ينتقل جرير من الفخر إلى الهجاء بقوله:

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الفِرْزَدِقِ مَيْسَمِي وَضَعَا البَعِيثُ جَدَعْتُ أَنْفَ الأَخْطَلِ

وهو هنا يهجو دفعة واحدة خصومه الشعراء: الفرزدق و البعيث، والأخطل. أمّا الفرزدق فمعروف وأما الأخطل فهو أحد أشعر ثلاثة في العصر الأموي، ومن المُقَدَّمين في الشعر وهو أحد خصوم جرير لكن خصومته معه لم تطل وتمتد كما حصل له مع الفرزدق، في حين أنّ البعيث هو شاعر مغمور من قبيلة الفرزدق ولقد ذكره جرير في معرض الهجاء في ديوانه حوالي ٢٣ مرة. وإذا أردنا أن نبحث عن علة هذا الهجاء المعم لشعراء ثلاثة مع بعضهم البعض، يمكن القول أن جريرا أراد أن يردّ ردًا شاملا على الفرزدق، وأن يتهرّب كذلك من الردّ التفصيلي، ونقض الأبيات بيتا فبيتا ومعنى فمعنى. لأنّ جريرا لا يستطيع أن يجاري الفرزدق في هذا الميدان نظرا - كما أسلفنا - لتواضع أصله، ورفعة أصل الفرزدق، فخرج بتعميمه من معضلة النقص المفصل الذي لن يكون في صالحه. "١"

وأول بيت فيه نقض حقيقي بمعنى الإبطال والإفساد وفيه حاول جرير إبطال أو إفساد معنى محدد موجود في بيت الفرزدق هو البيت الموالي:

أخزى الذي سمك السماء مجاشعا وبنى بناءك في الحضيض الأسفل

فهذا البيت يقابل بيت الفرزدق:

إنّ الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

"١" خالد محمود عزّام، جرير شاعر النقائض الأموية والنزعة الدينية ص ١٩٧.

ثم تتوالى الأبيات التي يحاول فيها جرير نقض كلام الفرزدق معنى فمعنى و بيتا فبيتا، يقول جرير:

بَيْتًا يَحْمُمُ قَبَيْكُم بِفَنَائِهِ دَنِسًا مَقَاعِدُهُ خَبِيثُ الْمَذْخَلِ
وَلَقَدْ بَنَيْتَ أَحْسَنَ بَيْتٍ يُبْنَى فَهَدَمْتَ بَيْتَكُمْ بِمِثْلِي يَذْبُلِ

فبيت الفرزدق لا يجمع إلا من هم في منزلة العبيد شأناً ووضاعةً ممن يفخر بهم، وهذا هو موضع فخر الفرزدق في فناء ذلك البيت وقد علاه السواد رمزا لوضاعته، وقد اتصل بالذنس والخبث، ثم يزيد جرير في بيته التالي أن بيتك يا فرزدق: هو أحسن بيت يمكن أن يُبنى وأن بيتي أنا هو حجم جبل (يذبل) مناعة وقيمة وقدرًا. ويلاحظ هنا أن جريرا يلجأ إلى كلمات وألفاظ التحقير التي لاتقوم على واقع أو تتأسس على معطيات حقيقية مثل ما فعل الفرزدق.¹

ومن المهم الإشارة أن هذه الخطة أو هذه السيرورة يفرضها شعر النقائض على الشعراء، ويفرضها سياق الصراع، إذ أن الغاية هي إرضاء جمهور العامة و المتلقين والفوز بصوتهم، هؤلاء هم الذين يشكلون حكما في هذا السجال وعلى الشعراء النزول عند شروطهم و اذواقهم ورغباتهم، كما ان تتبع نقض الابيات بهذا الشكل التفصيلي يظهر براعة هذا الشاعر أو ذاك، وتظهر مدى رفعة للتحدي المفروض عليه من طرف الشاعر الخصم، انها ببساطة قواعد لعبة هذا الصراع بين الشعراء فهي اللعبة التي كان يعجب بها القوم ويخرجون للفرجة عليها في المسرح الكبير، وكانت تختلف إليه الجماهير وتتعلق حلقات للاستماع إلى الشعراء وإلى ما يحدث بين جرير والفرزدق خاصة.²

(ج) تحليل الصور الفنية :

كما تقدّم فإنّ سياق شعر النقائض يضيق بالخيال وبعناصره من صور بيانية، فالمقدّم عليه هو الواقع بحقائقه الفعلية، أو بادّعاءات هذا الشاعر أو ذاك من أطراف هذا الصراع، فكلما ذكر الشاعر الوقائع والحقائق و اعتمد عليها كان إلى النجاح أقرب و فوزه بهذا الصراع أرجح. هذا ما يميز شعر النقائض (عند الفرزدق وجرير على الأقل) ومما يميز هذا الشعر كذلك أنه يعتمد على الصور البيانية الأقرب للحقيقة، أي على (التشبيه) الذي غلب على بقية الصور البيانية لما مثله من شحنات دلالية تمنح النص في النقيضتين بعدا مهماً.³

¹ "انور حميدو علي فيشوان، محاضرة في فن السخرية في شعر جرير، ص 1.

² "شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي ص 183.

³ "عبد الواحد زيارة اسكندر، نقائض جرير في ضوء منهج الأسلوبية المقارنة ص 7.

ففي نص الفرزدق نجد أنّ أسلوب التشبيه يتّخذ طابع الفخر لسبب أنّ الفرزدق كان يبدأ نقائضه بالفخر، على حين نجد أنّ طابع الهجاء والسخرية هو الغالب على أسلوب التشبيه عند جرير والسبب في ذلك يكمن في أنّ الفرزدق هو الذي بدأ بالقول فكان لا بد للفخر أن يحتل المساجلة في نصه، وكان على جرير أن ينقذ مقالته فيلجأ إلى أسلوب الهجاء.

ولعل من أهم دوافع فن السخرية عند جرير هو ذلك الإحساس النفسي بالضّعة والهوان الذي يتملّك الشاعر بسبب هوان أسرته وفقر قومه. فالنشأة المعدّمة التي لاتخلو من ضيق وبؤس كانت أهم الأسباب التي فجرت ينابيع الإبداع في نفسية الشاعر وشكّلت شخصيته المتفرّدة في ساحة الهجاء وفي التهكّم خاصة. ذلك أنّ جريرا لم يكن مثل الفرزدق الذي يملك الكثير من الأشياء التي تمنحه الشعور بالفخر والتعالي فيستند إليها في سموحه وتحديه من مثل عليّة القوم وعراقة الأصل، وإنّما جرير كان ينتابه حيال ذلك احساس عميق بمركب النقص ازاء هذا الخصم المتعالي بقومه، اما جرير وماذا عساه يفعل وهو المهيبض الجانب الذي لا يملك من مثل هذه الأسباب شيئا، إلا أن يلجأ إلى مصادر تعويضية ممثلة في رصد المثالب التي ينوّع فيها ويولد منها، ويوردها في سياق من السخرية اللادعة فضلا عن المبالغة في تصويرها.¹

فهاهو الفرزدق يقول مفتخرا:

أَحْلَامُنَا تَزِنُ الْجِبَالَ رَزَانَةً وَتَخَالُنَا جِنًّا إِذَا مَانَجَهْلُ

فيجيب جرير ناقضا هذه المنقبة بسخرية وتهكّم:

أخبر بني وقبان أنّ حُلومَهُم خَفَّتْ فَمَا يَزِنُونَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

هنا يعمد جرير إلى استخدام نعوت هازئة، قيلصقها بهم إصاقا حتى تصبح لديه لازمة يكررها متى ذكرهم.²

ومن الصور البيانية الواردة في القصيدة (التشبيه المجمل) في قوله :

ولقد ذكرتك والمطيّ خواضع وكأنّهن قَطَا فلاة مجهلُ

فقد شبّه الشاعر المطية في شكل سيرها وطأطأتها بالقطا المبادرة للماء، وقد ربط بين (المشبّه والمشبّه به) بأحد أدوات التشبيه وهي (كأنّ).

¹ خالد محمود عزام، جرير شاعر النقائض الاموية والنزعة الدينية ص ١٩٧.

² أبو عبيدة معمر بن المثنى، شرح النقائض (نقائض جرير والفرزق) ص ٥٧.

ومثله الشبيه الآتي بحرف التشبيه (الكاف) في قوله:

ودع البراجم إنَّ شُربك فيهمُ مرُّ مذاقه كطعم الحنظلِ

والتشبيه الآخر، ولكن بأداة تشبيه أخرى هي الاسم (مثل) في قوله :

أزرى بجلمكم الفياش فأنتمُ مثل الفراش غشين نارِ المصطلى

فهنا تشبيه قوم الفرزدق بالفراش الذي يغشى النار ويتهوى نحوها، وهو بذلك يتهوى إلى هلاكه. ومن الصور البيانية القليلة التي لاتقوم على التشبيه هي (الاستعارة التصريحية) في قوله :

أعددت للشعراء سُمًا ناقعًا فسقيت آخرهم بكأسِ الأوّل

فلقد أعدّ الشاعر هجاء مثل السمّ الناقع، فحذف (المشبه) وهو شعر الهجاء، وترك (المشبه به) وهو السمّ الناقع، وبقي في كلامه ما يصرف السامع عن المعنى الظاهر ويبقيه في المعنى المجازي. وهي (إستعارة) لعبت دورا في تقوية فكرة قوة هجائه وفعالية شعره.

طغت صورة التشبيه بشكل بارز للنظم لما لهذه البصورة من دور في تقريب المعنى وتثبيته في ذهن السامع، أيضا بمناسبة للمقام الشعري عموما.

(د) تحليل اللغة الهجائية :

لاتكاد تختلف لغة الهجاء عند جرير عن تلك التي عند الفرزدق، فكلاهما ينهل من معين واحد ويخاطب المتلقي نفسه، وغني عن البيان أنّ مرد ذلك إلى اشتراك الشاعرين في القيم الثقافية و الاجتماعية الواحدة، لأنّ المشترك القيمي واحد لديهما لذلك ففي النهاية تشابهت اللغتان إلى حدّ بعيد. لكن يجب أن نذكر أنّ خطاب جرير بشكل عام يميل إلى السهولة والبساطة، لا ضعفا منه ولكن لخدمة غاية وظيفية معينة، هي تقريب كلامه من جمهور العامة والوصول الى إذهانهم، وتقديم بضاعته الشعرية في شكلها الأبسط.

كما قلنا سابقا في معرض حديثنا عن الفرزدق فلغة الفرزدق الشعرية ولغة الهجاء عنده هي انعكاس لمكانته الاجتماعية التي يشهد له بها كافة العرب، لذا جاءت لغته محتقّرة لخصمه، فيها الكثير من الإعتداد بالنفس والإعتزاز بالذات، فكيف تكون لغة جرير المجرد من كل هذه المقومات الاجتماعية، والتي بدونها لا يستطيع مجاراة الفرزدق في هجائه أو في الصراع معه؟ إنّ الاجابة على هذا السؤال تتطلب دراسة قصيدة جرير بشكل متعمّن وعن قرب، بل دراسة شعره في النقائص للوصول لحقيقة الأمر، وإلى الخيارات أو الاستراتيجية بها تحايل وتغلّب على هذا العجز (الطبيعيّ) والجواب يكمن - كما اكتشف جرير - في نوعيّة المتلقّي الذي يُوجّه إليه

خطابه في النقائض، فهذا المتلقّي من العوامّ أو أشباه العوامّ، والعبرة هي الانتصار على الفرزدق عند هؤلاء، وليس لدى الخاصة من العلماء واللغويين وأهل صناعة الشعر، فما عليه إلا الوصول إلى قلوبهم وعقولهم ومعرفة ذوقهم الفنّي والشعري، وإرضاءه والاستجابة لمتطلباته وهذا هو الذي حصل، فلقد فكّ جرير شفرة العامة وأشباههم وعرف كيفية الوصول إليهم وقد وصل مكن ذواتهم، لذا نقرأ في التاريخ أنّ الحظوة والمكانة كانت لجرير فهو المقدّم عندهم على الفرزدق رغم أنّ للفرزدق من مؤهلات تجعله - منطقيًا - بطل النقائض، الظاهر بهذا الصراع.¹

ويكمن السرّ في لغة وأسلوب جرير القريب من العامة البعيد عن بالتعقيد أيا كان نوعه ومستواه، فلقد أَرْضَى العوام وخاطبهم بما يفهمون، فالتدّت أسماعهم بخطابه الشعري، وهذا الذي يُلتَمَس في هذه القصيدة من مثل قوله:

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مَيْسِمِي وَضَعَا الْبَعِيثُ جَدَعْتُ أَنْفَ الْأَخْطَلِ

ففخر الشاعر هنا وهجاؤه كذلك تمثل في أنّ له ميسما، والميسم حديدة تُحمى فتكوى بها الدّواب أي تؤسم، وميسم جرير هو شعره، وقد وسم به الفرزدق، وأنّ البعيث قد ذلّ، وأنّ الفرزدق قد جدّع أنفه، وجدّع الأنف عند العرب آنذاك دلالة على المهانة والذلّ، وهو من علامات العبودية. والمعاني نفسها تتردد واللغة ذاتها تُعاد ومن ذلك قوله:

أَخْزَى الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ مُجَاشِعَا وَبَنَى بِنَاءَكَ فِي الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ

فجرير يكتفي باللفظ الذي لاحقيقة له، فهو يدعو بالخزي على مجاشع، وإنّ الله قد بنى بناء الفرزدق هذا في الحضيض، فالفرزدق يورد الحقائق والوقائع من شرف المحتدّ وعلة المكان ورفعة الأصل، وجرير يدفع هذه الكلمات التي لاتقوم على وقائع أو حقائق قيمتها إنها مجرد سباب وتهجّم وقدح وسبّ لاغير ذلك، دون أن تتأسس على حقيقة ما، أو واقعة وكان الهجاء في جرير غريزة يرمي بها الناس لأدنى سبب وعلى غير معرفة.²

وجرير يعلم أنّ هذه الكلمات الملقاة، والتي هي مجرد أصوات في الهواء يتعلق بها العامة لبساطتها وابتذالها وقربها من أفهامهم ومعهودهم، فتجري على ألسنتهم ويتغنّون بها وينشدونها في المجالس والمحافل والأسواق، يردّها الكبار والصغار، وهكذا يحقّق جرير هدفه دون أن تكون له الأفضلية حقيقة بل لأنه أحسن الكلام واختار مايناسب مع المتلقّي المناسب.³

¹ خالد محمود عزّام، جرير شاعر النقائض الاموية والنزعة الدينية ص ٢٠٦.

² احمد حسن الزيات تاريخ الادب العربي ص ١٢٣.

³ خالد محمود عزّام، جرير شاعر النقائض الاموية والنزعة الدينية ص ٢٠٧.

ومعاني القصيدة عموماً قريبة أيضاً من العامة، بسيطة، متداولة في سوق الكلام آنذاك، تلبي حاجات أهل العصر وترضي ذوقه وتعطي لهم ما يريدون، وشاهد آخر على بساطة التعبير هو قربه من ذوق أهل العصر من العوام. يقول الشاعر:

إني انصببت من السماء عليكم حتى أختطفنك يافرزدق من عل

فهذا البيت بسيط في معناه، لا يكلف جريراً شيئاً فهو ينصب على أعدائه انصباب الجوارح، ويختطف الفرزدق الذي لاحول له ولا قوة أمام اندفاع وقوة جرير وسرعته. ورغم تمكن جرير من ناصية الشعر وشعبه ومداخله ومخارجه إلا أنه اختار هذه الاستراتيجية لمعرفة بحقائق الواقع وهي: أن الانتصار في هذا الصراع الشعري يعتمد على العامة لا الخاصة والمعياري فيه إرضاء هذه الطبقة الشعبية، لا في جودة الشعر وحسنه. ومنه فالهدف من الشعر الاستجابة لتلك الطبقة وحسن مخاطبتها، والسعي للتأثير فيها وهذا الذي حققه جرير إلى حد بعيد. "1"

(هـ) تحليل الأبنية الإيقاعية :

من المعروف أنّ في شعر النقائض أو حتى في المعارضات الشعرية على الشاعر الذي يرد أو يناقض، أن ينظم قصيدته أو شعره على البحر نفسه وبالروي نفسه. لذلك جاءت قصيدة جرير على نفس بحر قصيدة الفرزدق التي يناقضها وعلى الوزن ذاته وهو (بحر الكامل) ونفس الروي وهو (اللام).

وكما أسلفنا ذكره فبحر (الكامل) بحر يستوعب التجارب الإنسانية العديدة، نظراً لمرونة وطواعية طاقته الصوتية، وقدرة استيعابه التجارب الشعورية والشعرية. "2"

والكامل في قصيدة جرير من النوع الذي عروضه صحيح وضربه صحيح. قال جرير في مطلع قصيدته:

لَمَنْ الدِّيارِ كَأَنَّها لَمْ تُحَلَّلِ	بَيْنَ الكُناسِ وَبَيْنَ طَلْحِ الأَغْـزَلِ
لمند ديا ركانها لم تحلي	بين لكنا س وبين طل حلازلي
٠ ٠ ٠ ٠ ٠	٠ ٠ ٠ ٠ ٠
مُتَّفاعِلن مُتَّفاعِلن	مُتَّفاعِلن مُتَّفاعِلن

"1" عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي ج ١ (من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية)، ص ٦٦٥.

"2" عبد الواحد زيارة إسكندر، نقائض جرير في ضوء منهج الأسلوبية المقارنة ص ٥.

ولقد اتفقت القصيدتان في القافية كذلك، فكلاهما اتفق على مقطع صوتي واحد به ختم كل بيت، والقصيدة النقيضة لجرير لا تتميز بأي ميزة عروضية أو إيقاعية صوتية تميّزها عن قصيدة الفرزدق، مما يترجم ظاهرة التناغم الموسيقي العروضي بين القصيدتين على عكس المعاني المتضمنة فيهما.

دراسة مقارنة لشاعري النقائض:

بعد الوقوف على قصيدتي جرير والفرزدق يجدر بنا الوقوف على ما اتفقا فيه وما اختلفا فيه حتى يتبين لمن كان فضل السبق والتفوق بينهما، كلاهما حاول إبطال مزاعم صاحبه وكلاهما يدّعي لنفسه الفخر والشرف لقومه ويتهّم صاحبه بالخسّة والحقارة لذا رأينا جريرا يأخذ من أبيات صاحبه ما يعجبه ثم يرد عليه فقد قال الفرزدق:

إنّ الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعزّ وأطول

فيقول جرير في هذا:

أخزى الذي سمك السماء مجاشعا وبنى بناءك في الحضيض الأسفل

ثم يقول هذا الأخير :

إنّ الذي سمك السماء بنى لنا بيتا علاك فماله من منقلل

ومن ذلك ايضا قول الفرزدق:

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنّا إذا مانجهمل

فيردّ عليه جرير قائلا:

أحلامنا تزن الجبال رزانة ويفوق جهالنا فعال الجهل

فجرير لا يكتفي بالرد على معاني صاحبه بل يردّ عليه بألفاظه أيضا، كلاهما متميز فنياً وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على تشبّع وجدان الشعراء بالهجاء. ¹

¹ فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين ص ٨.

أما أوجه الاختلاف فيمكن أن نستشفها من القيمة الفنية لشعر كل منهما، لبيان الأحق بالمقدرة الشعرية وفضل السبق والعلاوة.

(١) الفرزدق :

شاعر بدوي النزعة ميّال إلى الفخر والتبجح، ومن ثم كان أسلوبه بدويا في نحت ألفاظه، وكان شعره وقفا على الخاصة ولم يجد النسيب الرقيق، لهذا نراه لا يلتزم الديباجة الغزالية بل يهجم على موضوعه باندفاع، وهو إلى ذلك يتجاوز قوانين الشعر المشهورة، وقد اتسم الشاعر بنفسية متناقضة نراها في نزعاته السياسية والمعنوية والأخلاقية، فهو متقلب في عاطفته وإخلاصه ومثلون في رغباته ومنافعه، لذلك لانكاد نلمس بروز العاطفة عنده إلا في مدح آل البيت كقوله:

يلجون بيت مجاشع وإذا اختبوا برزوا كأنهم الجبال المثّل

أما في سواهم فيعمد الشاعر إلى الغلو و المداهنة ضعف العاطفة.¹

(٢) جريـر :

وهو شاعر من النفوس ذات الطبع الناعم الرقيق، لذا وفق في المواقف العاطفية كالرثاء، فالعاطفة هي منبع كل شئ في شعره، وهي عنده تغطي على العقل والخيال، لهذا ضعف تفكيره كما ضعف خياله ووصفه فجرى على توثب إحساسه الذي يثيره وتستفزّه المؤثرات العاطفية، وقد اجتمعت العاطفة عند جرير الى قريحة فياضة فكان شعره فيسكب على طبع غني وكأن الشاعر فعلا يغرف من بحر، فلا يجهد بشعره ولا يعتمد إلى التفاف وتنقيح ونحت كالفرزدق، بل يسيل شعره سيلانا في سهولة تمتدّ بامتداد قصائده، وفي خفة ولباقة تعبير وموسيقى لفظية أخّاذة بجانب الوضوح، يلتمس ذلك في قوله:

إنّي انصبت من السّماء عليكم حتى اختطفتك يا فرزدق من عل

¹ بتصرّف

وجريـر وإنْ كان شاعر الطبع والعاطفة المتدفقة، لم يسلم أحياناً من الصنعة وهو أفدر من الفرزدق في نقض الكلام وأشدّ فتنة منه كقوله:

أخزى الذي سمك السماء مجاشعا وبنى بناءك في الحضيض الأسفل

مناقضا الفرزدق حين قال:

إنّ الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطـول^١

*بين الفرزدق وجريـر:

قال الاصمعي: اتفقت العرب على ان الفرزدق وجريـر من اشعر اهل الاسلام واختلفوا في تقديم كل منهما على الاخر، فابن سلام يقول : الفرزدق أشعر خاصّة وجريـر أشعر عامّة ، ويحتجّ لتقدّم جريـر أنّه كان أكثر من صاحبه في فنون الشعر، وأسهله ألفاظا وأقلّه تكلفا أرقه نسيبا وكان ديننا عفيفا.

وقال خالد بن كلثوم: ما رأيت أشعر من جريـر والفرزدق ويواصل وقوله قال الفرزدق بيتا مدح فيه قبيلتين وهجا قبيلتين :

عجبتُ عَجَلًا إذ تهاجا عبيدُها كما آل يربوع هجوا آل دارم

يعني بعبيدها بني حنيفة، وقال جريـر بيتا هجا فيه أربعة:

إنّ الفرزدق والبعيث وأمّه وأبا البعيث لشرّ ما استار

وقال جريـر: لقد هجوت التيم في ثلاث كلمات ما هجا فيهن شاعر شاعرا قبلي:

من الأصلاب ينزلُ لؤمُ تيم وفي الأرحام يُخلق والمشيـم^١

^١”ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني، مجلد ٣ ص ٨١٢.

وقال محمد ابن سلام: رأيت أعرابياً من بني أسد أعجبني ظرفه وروايته فقلت له : أيهما عندكم أشعر؟ قال: بيوت الشعر أربعة : (فخر ومديح وهجاء ونسيب) وفي كلها غلب جرير،

* قال في الفخر:

إذا غَضَبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابَا

* وفي المديح قوله :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحٍ

* وفي الهجاء :

فَغُضِّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابَا

* والنسيب :

إِنَّ الْعُيُونََ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حُورٌ قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَا قَتْلَانَا¹

كان المهلب ذات ليلة بفارس وهو يقاتل الأزارقة إذ سمع في عسكره جبلة وصياحا فقال : ما هذا؟ قالوا: جماعة من العرب تحاكموا إليك فأذن لهم فقالوا: إنا اختلفنا في جرير والفرزدق، فكل فريق منا يزعم أن أحدهما أشعر من الآخر، وقد رضينا بحكم الأمير، فقال: كأنكم أردتم أن تعرضوني لهذين الكلبين فيمزقا جلدي لن أحكم بينهما، ولكني أدلكم على من يهون عليه سبال جرير وسبال الفرزدق، عليكم بالأزارقة فإنهم قوم عرب يبصرون بالشعر ويقولون فيه الحق. فلما جاء الغد خرج عبيدة بن هلال اليشكري ودعا إلى المبارزة، فخرج إليه رجل من عسكر المهلب، فقال له : يا عبيدة سألتك الله إلا أخبرتني عن شيء أسألك عنه، قال: سل، قال: أجرير أشعر أم الفرزدق؟ قال: قبحك الله أتركت القرآن والفقاه وسألتني عن الشعر إنا تشاجرنا في ذلك ورضينا بك. فقال: من الذي يقول:

وطوى الطراد مع القياد بطونها طي التجار بحضرموت برُدا²

فقال: جرير. قال: هذا أشعر الرّجلين.

¹ ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني، مجلد ٣ ص ٨١٣.

² محمد عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، ص ١٧١.

وقال محمد بن سلام: سألت بشّارا العقيلي عن الفرزد وجريير؟ قال: كان جريير يُحسن ضروبا من الشعر لا يحسنها الفرزدق وقد فضّل جرييرا عليه.¹

على أنه من الإنصاف القول أنّ أسلوب الفرزدق اتّصف بأنّه كان صورة لأساليب الفصحاء، من شعراء الجاهلية في فصاحته وجزالته وغرابة ألفاظه وسعة مفرداته حتى قيل:

((لولا الفرزدق لذهب ثلث اللغة)) .²

وفي كل هذا يبقى لكل شاعر خصوصيته ومميّزاته وبصمته، كما يبقى لكل منهما رصيده الشعري الذي يخلّد إسمه في حقل الشعراء المبدعين.

¹ أبو الفرج الاصفهاني، الاغانى، مجلد ٣ ص ٨٢٩.

² أحمد حسن الزيات تاريخ الادب العربي ص ١٦٥.

الخاتمة

الخلاصة:

خلصنا في نهاية هذا البحث إلى مجموعة من النتائج ممثّلت لبّ الدراسة:

- لقد اهتم خلفاء بني أمية بالشعر و الشعراء اهتماما كبيرا، لاعتمادهم عليهم في الدّعى لهم وإقامة دعائم دولتهم، ومن ثم ظهرت صور هذا الاهتمام في قصورهم ومجالسهم. وقد عدّ الشعر في عصر بني أمية سلاح كل فريق لمواجهة الخصم، لذا اعتمد على الهجاء لإهانة العدو ومن هذا الهجاء السياسي ظهر لون آخر من الشعر هو ((النقائض)) تبادل فيه شعراء ذلك العصر السّباب على نحو مايعرف من قبل محور هذا الفن.

- شاعت النقائض في العصر الأموي بشكل كبير، وقد أسهمت في فهم الأساليب الشعريّة التي استعملها كل شاعر.

- الهجاء أدب غنائي يصور عاطفة الأدب والإستهزاء، ولم يكن الهجاء عند العرب في اعتبار الإفحاش لكنّه فصل المرء من مجموع الخلق الحيّ ووصمه بأضدادها.

- النقيضة هي قصيدة لخصم له فينقض معانيها عليه ويقلب فخر خصمه هجاء، وتكون النقيضة من بحر الخصم وعلى رويّها، ومن أسباب استحداث غرض النقائض في العصر الأموي هو تضخّم حركة الأدب في الأصقاع آنذاك، وتطور العقلية العربية وحاجة الناس إلى نوع من الثقافة لسّ الفراغ الهائل في حياتهم.

- أبرز فطاحلة هذا الفن هم : البعيث المجاشعي، الراعي، غير أنّ عمّد ذلك العصر في النقائض هم الشعراء الثلاثة المُقدّمون : جرير والفرزدق و الأخطل.

- كانت النقائض الأموية نهضة فنيّة خاصّة، فقد ساعد فحولها في إحياء الغريب من اللّغة ولا سيما على لسان الفرزدق الذي قيل فيه (لولا شعره لذهب ثلث اللّغة).

- كان الفرزدق من فرع قويّ من بني تميم عُرف جده صعصعة بافتداء البنات من آبائهن في الجاهلية، حتى لُقّب بمحيي المؤودات ولفخر الفرزدق بأصله فقد غلب في شعره غرض الفخر.

- أمّا جرير فقد نشأ فقيرا يرعى إبل قومه، غير أنّه شبّ فصيح اللّسان صحيح الوجدان مطبوع القريحة على الشعر.

- بدأت قصة النقائض الأموية، حول مشاكل قبلية، فلقد كانت أول مناقضة هي التي كانت بين جرير وبين شاعر اسمه غسّان فقد تعرض هذا الأخير له ولعشيرته بالهجاء فردّ عليه جرير وتدخل بعدها شعراء آخرون في تلك المناقضات.

- وبسبب استفحال الهجاء السياسي في العهد الأموي وتعدُّد مذاهبه، فقد تحوّل الهجاء من فنّ وقتي متقطّع إلى فنّ دائم مستمر على يديّ شاعريّ النقائض جرير و الفرزدق.

- اشتهرت قصيدة الفرزدق (إنّ الذي سمك السّماء) كغيرها من قصائد النقائض على غرضين شعريّين هما الهجاء والفخر، ولأنّ النقائض شعر اجتماعي المنزع فقد كان نصيب الخيال فيه بقدر معلوم، بينما كان للتّشبيه فيه القسط الأوفر.

- ومن ناحية الإيقاع لهذه القصيدة فقد بُنيت على بحر (الكامل) لأنّه البحر الأنسب لاستيعاب التجارب الشعريّة والشعورية وهذا ماأهلهاأ يكون بحرا تنظّم فيه قصائد وأشعار النقائض.

- بمقابل قصيدة الفرزدق نجد نقيضتها لجرير (لمن الدّيار) هي قصيدة ردّ بها جرير على قصيدة الفرزدق السابقة، قام فيها بنقض معاني الفرزدق وإفسادها عليه طمعا في الفوز في هذا الصّراع الشعريّ.

- وتتميّز نقيضة جرير على قصيدة الفرزدق بمقدّماتها الغزليّة وبمطلعها الطللي وبهذا قامت على أغراض ثلاثة هي : الغزل والفخر والهجاء. ولأنّ سياق شعر النقائض يضيق بالخيال وبعناصره من صور بيانيّة فإنّ التّشبيه غلب على القصيدة لقربه من الحقيقة.

- وبما أنّ شعر النقائض يلتزم فيه الشاعر بالردّ على من يناقضه بنفس الوزن والبحر، فقد جاءت قصيدة جرير على نفس وزن الفرزدق وعلى البحر ذاته وهو (الكامل).

- اتّفقت العرب على الفرزدق وجرير أشعر أهل الإسلام واختلفوا في أيّهما أفضل، فالفرزدق شاعر بدويّ النزعة ومن ثمّ كان أسلوبه بدوي في نحت ألفاظه أما جرير فهو شاعر من النفوس ذات الطبع الناعم فكان شعره ينسكب عن طبع غنيّ وكأنّه فعلا يغرف من بحر.

- وفي كلّ هذا يبقى لكلّ شاعر خصوصيّة ومميّزاته، كما يبقى لكلّ منهما رصيده الشعري الذي يخلّد اسمه في حقل الشعراء الفطاحلة.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم

- ١- الحطيئة، ديوانه، شرح: حمدو طمّاس، دار المعرفة، لبنان ط 2 2005م.
- ٢- أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، الكامل في اللغة و الأدب، تحقيق: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة للطبع و النشر، ط ٣ ١٩١٧م.
- 3- أبو الفرج الأصفهاني، الأغـاني، تحقيق و إشراف: لجنة من الأدباء، المجلد الثاني، دار الثقافة، بيروت ط 5 1981م.
- ٤- أبو زيد محمد ابن أبي الخطّاب القرشي، جمهرة أشعار العرب في الحاهلية و الاسلام، نهضة مصر للطبع و النشر و التوزيع، القاهرة د. ط 1981م.
- ٥- أبو علي الحسن ابن رشيّق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ج 2 تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر، لبنان ط 5 1981م.
- ٦- أبو عمر أحمد ابن محمد ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد ج 7 ، وضعه: محمد فؤاد عبد عبد الباقي و محمد عبد المطّلب، دار الكتب القاهرة د. ط 1973 م.
- ٧- أبو الفتح عثمان ابن جني، كتاب العـروض، تحقيق: أحمد فوزي الهيب، دار القلم الكويت ط ٢ ١٩٨٩م.
- ٨- أبو الفرج الأصفهاني، الأغـاني، تحقيق و إشراف: لجنة من الأدباء، المجلد الثاني، دار الثقافة بيروت ط ٢ ١٩٨١م.
- 9- أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور، لسان العرب، المجلد السابع، دار صادر بيروت ط ٣ ١٩٩٤م.

- ١٠- أبو عبيد الله الحسين ابن أحمد الزوزي، شرح المعلمات، لجنة التحقيق في الدار العالمية بيروت د.ط ١٩٩٢م.
- ١١- أبو عبيدة معمر بن المثنى، شرح نقائض جرير و الفرزدق ج ٢ ، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، لبنان ط ١٩٩٨م.
- ١٢- أبو عثمان ابن بحر الجاحظ، الحيوان، شرح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده، مصر ط 1965م.
- ١٣- أبو هلال العسكري، ديوان المعاني ج 2 شرح: أحمد حسين بسج، دار الكتب العلمية، لبنان ط 1994م.
- ١٤- أحمد الشايب، تاريخ النقائض في الشعر العربي، مكتبة النهضة المصرية ط 1954م.
- ١٥- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطبع و النشر، القاهرة د.ت.
- ١٦- إبتسام مرهون الصقار، الأمالي في الأدب الاسلامي، دارالمناهج للنشر، عمان د.ط 2005م.
- ١٧- الطاهر احمد مكي، مقدمة في الأدب الاسلامي المقارن، عين للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية، القاهرة ط 1994م.
- ١٨- إيليا الحاوي ، شرح ديوان الفرزدق ج2، دار الكتاب اللبناني ، لبنان د.ط 2009 م.
- 19- جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية العربية ج1 ، مراجعة: الدكتور شوقي ضيف، دار الهلال، جامعة القاهرة ط 1 د.ت
- 14- حنّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم) دار الجيل، بيروت ط 1986م.

- 15- خالد محمود عزّام ، جرير شاعر النقائض الأموية و النزعة الدينية، عالم الكتب الحديث للنشر و التوزيع ، الأردن ط 1 2007م.
- 16- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي ج2 ترجمة: عبد الحليم النجار، دار المعارف القاهرة ط 8 1987م.
- 17- مجّع اللغة العربية، المعجم الوجيز، وزارة التربية والتعليم مصر 1994م.
- 18- مجّع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر ط 4 2004م.
- 19- محمد ابن مسلم ابن قتيبة الدينوري ،الشعر و الشعراء، تحقيق: عمر الطباع، دار الأرقم لبنان ط 1 1997م.
- 20- محمد محمد حسين، الهجاء و الهجّاءون في الجاهلية، شرح: عبد السلام محمد هارون مكتبة الآداب بالجماميز مصر د.ط 1947م.
- 21- _____ ، الهجاء و الهجّاءون في الإسلام، شرح: عبد السلام محمد هارون مكتبة الآداب بالجماميز مصر د.ط 1947م.
- 22- مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة، القاهرة د.ط 1998م.
- 23- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب اللغة العربية ج2 مراجعة: عبد الله المنشاوي و مهدي البحقيري، مكتبة الإيمان ، القاهرة ط 1 1997م.
- 24- عبد الباسط عبد الخالق محمود، الغزل في شعر بشار بن برد (دراسة أسلوبية) دار طيبة، مصر ط 1 2005م.

- 25- عبد الرحمان الوجي، الإيقاع في الشعر العربي، دار الحصاد، دمشق ط 1 .
- 26- عبد الله الصاوي، شرح ديوان الفرزدق، مطبعة الصاوي شارع الخليج المصري، مصر.
- 27- عثمان موافي، في نظرية الأدب من قضايا الشعر و النثر في النقد العربي ج 1، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية د.ط 2000م.
- 28- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي(من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدلة الأموية) دار العلم للملايين، بيروت ط 1 1981م.
- 29- غازي ظليمات و عرفان الاشقر، الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه ، دار الفكر العاصر، بيروت ط 1 2002م.
- 30- فوزي السيّد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان و التبيين ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة د.ط 2005م.
- 31- سعد إسماعيل شلبي، الأصول الفنية للشعر الجاهلي، مكتبة غريب الفجالة، القاهرة، ط 2 1982م.
- 32- شوقي ضيف، التطور و التجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ط 8 1987م.
- 33- _____، الفن ومذاهبه في الشعر، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، القاهرة، ط 11 1987م.
- 34- _____، تاريخ الأدب العربي(العصر الجاهلي)، دار المعارف القاهرة ط 24 2003م.
- 35- _____، تاريخ الأدب العربي(العصر الاسلامي)، دار المعارف القاهرة ط 24 2002م.
- 36- وليد قصّاب، ديوان عبد الله ابن رواحه و دراسة في سيرته و شعره، دار العلوم للطباعة و النشر، الرياض ط 1 1981م.

الرسائل العلمية:

- 1- مكلي شامة، الحجاج في شعر النقائض (دراسة تداولية) مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو 2009م.

المجلات و الدوريات:

- 1- عبد الواحد زيارة اسكندر، نقائض جرير و الفرزدق في ظل الأسلوبية المقارنة، مجلة ذي قار، كلية الآداب، العدد 1، المجلد الرابع 2008م.
- 2- أنور حميدو علي فيشوان، محاضرة : (فن السخرية في شعر جرير) ، كلية المعلمين لمحافظة جدة، جامعة عبد الملك عبد العزيز.

فهرس الموضو عات

فهرس الموضوعات :

الإهداء

شكر وعرهان

- مقدمة..... أ _____ ج
- مدخل..... ٤
- أ_ قيمة ودور الشعر الهجائي في العصر الأموي..... ٥
- ب_ شيوع فنّ النقائض في العصر الأموي..... ٦

الفصل الأول

في تعريف فنّي الهجاء والنقائض

*في تعريف الهجاء :

- أ) لغة..... ٨
- ب) تعريفه اصطلاحاً وأهم خصائصه..... ٩
- ج) المفهوم الأدبي لغرض الهجاء..... ٩
- صفات وميول الهجائيين النفسية..... ١١

أنوع الهجاء :

- أ) الهجاء الشخصي..... ١٣
- ب) الهجاء السياسي..... ١٤
- ج) الهجاء الديني..... ١٥

أسباب وشيوع الهجاء في العصر الجاهلي وأبرز فطاحلة هذا الفن

- أ) أسباب وشيوع الهجاء في العصر الجاهلي..... ١٧
- ب) الحطينة نشأته وحياته..... ١٨

- ١٩..... (ج) نماذج من شعره
- * في تعريف النقائض :
- ٢٠..... (أ) لغة
- ٢٠..... (ب) المفهوم الاصطلاحي لفنّ النقائض
- ٢١..... أسباب وظروف استحداث غرض النقائض في العصر الأموي
- ٢٣..... قيمة النقائض الأموية
- أبرز شعراء النقائض الأموية
- ٢٥..... (أ) البعيت المجاشعي
- ٢٥..... (ب) الرّاعي
- ٢٦..... (ج) الأخطل
- ٢٧..... نماذج من شعر الأخطل

الفصل الثاني

مشاهير فنّ النقائض في العصر الأموي

* الفرزدق

- ٢٩..... (أ) نشأته وحياته
- ٣٠..... (ب) شخصيته
- ٣١..... (ج) حسبته ونسبه
- (د) نماذج من شعره
- ٣٣..... ١ _ من شعر الفرزدق في المدح
- ٣٣..... ٢ _ من شعره في الشكوى
- ٣٤..... ٣ _ من شعره في الفخر

- ٣٤ _ من شعر الفرزدق في الوصف.....
- ٣٤ _ من شعر الفرزدق في مراثيه.....
- ٣٥ _ مذهب الفرزدق في الحياة.....

* جرير

- ٣٧ _ (أ) نشأته وحياته.....
- ٣٨ _ (ب) شخصيته.....
- ٤٠ _ (ج) نسب جرير.....
- (د) نماذج من شعره
- ٤١ _ ١ من شعر جرير في المدح.....
- ٤١ _ ٢ من شعر جرير في الفخر.....
- ٤٢ _ ٣ من شعره في النسيب والوصف.....
- ٤٢ _ ٤ من شعره في العتاب والشكوى.....
- ٤٢ _ ٥ من شعر جرير في مراثيه.....
- ٤٣ _ مذهب جرير في الحياة.....
- ٤٥ _ أسباب نشوب الحرب الكلامية بين جرير والفرزدق.....
- ٤٧ _ استفحال الهجاء السياسي في العصر الأموي.....
- ٤٩ _ تحوّل الهجاء عند الفرزدق وجرير إلى نقائض.....

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لشعر النقائض

* قصيدة الفرزدق

- أ) من قصيدة الفرزدق ٥٢
- ب) مضمون الأبيات وشرح مفرداتها ٥٣
- ج) تحليل الصور الفنيّة ٥٦
- د) تحليل اللغة الهجائيّة ٥٨
- هـ) تحليل الأبنية الإيقاعية ٥٩

* قصيدة جرير النقيضة

- أ) من قصيدة جرير النقيضة ٦١
- ب) مضمون الأبيات وشرح مفرداتها ٦٣
- ج) تحليل الصور الفنيّة ٦٥
- د) تحليل اللغة الهجائيّة ٦٧
- هـ) تحليل الأبنية الإيقاعية ٦٩
- دراسة مقارنة لشاعريّ النقائض ٧٠
- بين الفرزدق وجرير ٧٢
- الخاتمة ٧٥
- قائمة المصادر والمراجع ٧٧
- فهرس الموضوعات ٨٢